قيمة المرأة و الحب في الشعر الجاهلي

اعداد
د/ أحمد صلاح كامل
باحث وناقد مصري

Doi: 10.12816/mdad.2019.48361
الاستلام : ١٦/ ٧ /٢٠١٩ القبول : ٩ / ٩ /٢٠١٩

المستخلص :
الغزل في الآداب كلها هو حديث الهوى والحب ، وتصوير عواطف الرجل ومشاعره نحو المرأة، وقد احتل الغزل في الأدب الجاهلي مكانًا ظاهرًا، وكان حظه فيه عظيمًا ، وقال فيه جميع الشعراء من اشتهر منهم ومن لم يشتهر، ولقد أرجع ابن قتيبة شيوع الغزل والتشبيب في الشعر الجاهلي إلى أسباب نفسية وفطرية عند الشاعر والمتلقي، وأرجع الدكتور جواد علي الاهتمام بالمرأة في الشعر الجاهلي والتغزل فيها إلى عوامل بيئية وجغرافية وحياتية، ولقد نظر كثير من الباحثين إلى الغزل الجاهلي باعتباره تجربة خاصة تعبر عن ذاتية الشاعر أكثر من الأغراض الشعرية الأخرى، التي تعبر عن جماعية الشعور الذي فرضته قبلية المجتمع، غير أن هذه الرؤية تكاد تكون ظالمة لواقع الحياة وطبيعتها في ذلك العصر، وتجعل من مكانة المرأة وأثرها مجرد شكلٍ شعري خاص ارتبط بذات ووجدان الشاعر فحسب . لقد كان الحب والعشق زادًا للشاعر الجاهلي ، ولا يجب أن ننخدع بما يظهره من زهد ألم به لعوارض الشيخوخة أو كبر السن، فقد رأي الشاعر الجاهلي في هذا الحب إشباعًا لوجدانه المفتقر للحنان والرحمة من حوله، ووجد فيه متعة جسدية وروحية افتقدها في سائر مناحي الحياة الأخرى في عصره . لقد رأى الشاعر الجاهلي في الحب وفي امتلاكه للمرأة ملاذاً لروحه المنهكة وأمانًا لوجدانه المكدود، ورأى أنه بهذا الحب وبهذه المرأة المعشوقة يتحقق له الارتواء من النشوة والمتعة الجسدية والروحية، واعتقد أن بها قوة سحرية طقوسية خيرة تؤثر في الروح والجسد، ولعل أكبر دليلٍ على ذلك أنهم أطلقوا على أهم آلهتهم التي عبدوها أسماء أنثوية كاللات و العزى ومناة . فرأي في المرأة تميمة النجاة التي تقيه وتمنحه السعادة والبهجة ، واحتلت المرأة بمفاتنها الجسدية مكانًا كبيرًا في حياة الشاعر الجاهلي وفي إبداعه الشعري بشكل عام حيث رأى في مفاتنها طريقه إلى الارتواء من اللذة والامتلاء بالنشوة فبالغ في تصوير تلك المفاتن وغالى في وصف هذه التفاصيل الجسدية .

الكلمات المفاتيح : المرأة - الحب - الشعر الجاهلي

Abstract:

Spinning in all manners is a modern fancy and love, and portraying the emotions of the man and his feelings towards women, has been spinning in literature ignorant place, and was a great luck, where he said all the poets who is famous among them and not famous, has been attributed Ibn Qutaiba the prevalence of spinning and rejuvenation in poetry Jahili to the psychological and innate reasons when the poet and the recipient, ascribed to Dr. Jawad Ali Attention to women in ignorant poetry and spinning in it to environmental, geographic and life factors, and many researchers have seen the spinning ignorant as a special experience reflects the subjectivity of the poet more than other poetic purposes, which express the collective feeling imposed by the tribal community, but this vision is almost Injustice to the reality and nature of life in that era, and make the status and impact of women just a special poetic form associated with the self and conscience of the poet only.Love and love was an increase for the ignorant poet, and we must not be fooled by the ascetic pain shown by the symptoms of aging or old age. In his time.The poet saw ignorance in love and possession of women as a refuge for his exhausted spirit and safety for his hard-working conscience.He believed that with this love and this adored woman is achieved by perfusion of euphoria and physical and spiritual pleasure, and I believe that it has a good magic ritual power that affects the soul and body, perhaps the greatest evidence that they They named their most important gods, which they worshiped with feminine names such as al-Lat, al-Izz, and Manna. He saw in the woman the amulet of salvation that saves him and gives him happiness and joy, and women with their physical charms occupied a great place in the life of the ignorant poet and in his poetic creativity in general, where he saw in her charms the way to quench pleasure and full of

ecstasy, he exaggerated the portrayal of these beauties and often described these physical details.

ملأ الشاعر الجاهلي شقوق عالمه بالفروسية النبيلة واصطنع لها قيمها الأخلاقية ومثلها العليا التي تشفي غليل روحه المتعطشة للمجد والخلود ، فكانت الفروسية وسيلته الوحيدة لقهر هذا الموت ، والسمو على هذه الحياة الضنينة ، وكانت أهم قيم هذه الفروسية هي الحفاظ على المرأة وصونها ، فلم تكن فروسيته لتكتمل بدون تلك القيمة النبيلة .

وإذا كانت فروسيته قد جعلته يرتفع بهذا العالم إلى مستوى الانتصار أو الموت ، فإنه بحبه للمرأة ارتفع وسما إلى مستوى الفرح الكياني الكلي الأسمى ، فقد مثّلت فروسيته الدفاع عن النفس والانتصار للحياة ، بينما جسد الحب بالنسبة له المتعة النفسية والجسدية، وحقق له غبطة الاكتمال والتملك ، ومن ثم وجد في الحب جنته الأرضية .

وليس أدل على هذه المكانة الكبيرة للمرأة في نفوس الشعراء الجاهليين من أنهم افتتحوا قصائدهم بالغزل فيها والتشبيب بها ، والتفجُّع على رحيلها ، والبكاء على أطلالها ، فهي الملاذ النفسي والسكن الذي تهدأ به مشاعرهم ووجداناتهم ، وهي النشوة والفرح الذي يغمر كياناتهم ويظللها في هجير هذه الحياة المستعرة .

والغزل في الآداب كلها هو حديث الهوى والحب ، وتصوير عواطف الرجل ومشاعره نحو المرأة ، تلك التي رأى فيها تمثالا للجمال الإنساني ، وهي في الوقت ذاته نصفه الذي يكمل حياته ، وبها يتم ما يتمناه من راحة واستقرار وسعادة ، وقد احتل الغزل في الأدب الجاهلي مكانًا ظاهرًا ، وكان حظه فيه عظيمًا ، وقال فيه جميع الشعراء من اشتهر منهم ومن لم يشتهر، واتفق الجميع فيه على جعله بدءًا لقصائدهم ، وسار كل منهم فيه حسب ما يحلو له من وصف الحبيبة ، وأثر حبها وفراقها في نفسه ، وما يعانيه من عشقه لها وهيامه بها ، ولكن الظاهرة الواضحة في غزل الجاهليين ، أن الشعراء كأنما كانوا يتبارون في عرض محبوباتهم ، فحاول كل منهم أن يصورها في أجمل خلق وأحسن مظهر ، وإن اختلفوا في الإجمال والتفصيل ، أو في التصريح والتلميح [١]

ولقد أرجع ابن قتيبة شيوع الغزل والتشبيب في الشعر الجاهلي إلى أسباب نفسية وفطرية عند الشاعر والمتلقي فقال :- " ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدّة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه ، لأنّ التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبّة الغزل ، وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلّقا منه بسبب، وضاربا فيه بسهم، حلال أو حرام " [٢]

---

[١] - انظر في تاريخ الأدب الجاهلي د: على الجندي مكتبة دار التراث ص٤١٤

[٢] - الشعر والشعراء لابن قتيبة . تحقيق أحمد محمد شاكر . دار الحديث . القاهرة ١٤٢٣ هـ ج١ ص٧٦

هكذا نرى في كلام ابن قتيبة تفسيرًا نفسيًا للشعر وأغراضه ، و ذلك يعني أن المنهج النفسي في تفسير الأدب وجد منذ أمدٍ بعيد ، وإن كان المصطلح لم يظهر إلا متأخرًا ، فابن قتيبة ينظر إلى نهج القصيدة من زاوية نفسية ، ويرى أن الشاعر العربي لجأ إلى هذا النهج بقصد التأثير في نفس المتلقي ، ومن ثم يختار ما هو قريب إلى النفس ، كالحديث عن المرأة عموما ، فتأمل قوله : "لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب "، إن ابن قتيبة يحاول أن يسبر أغور النفس عند الشاعر والمتلقي بعيدًا عن اصطلاحات علم النفس بنظرياته الحديثة ، وإن كنا نرى أنه من الواجب أن نؤكد على أن الشاعر في كثيرٍ من الأحيان لم يكن يتعامل مع الغزل على أنه مجرد غرض شعري شكلي محبب إلى نفس المتلقي فحسب ، بل لأنه كان تنفيسًا عن مشاعره الحقيقية ولوعته التي يجد في إطلاع المتلقي عليها نوعًا من المواساة والسلوان .

ولقد أرجع الدكتور جواد علي هذا الاهتمام بالمرأة في الشعر الجاهلي والتغزل فيها إلى عوامل بيئية وجغرافية وحياتية ، أدت إلى إحساسهم المفرط برجولتهم البارزة في هذا الفراغ الكبير الذي كانوا يعيشون فيه فقال :- " للرجولة عند العرب أثر بارز لما في طبيعة بلادهم من الحر وعدم وجود أمور مسلية لديهم تصرف ذهنهم عن التفكير فيه وتلهيهم بعض الشيء عن الغريزة الجنسية ، ونجد في الأدب العربي شيئًا كثيرًا مما يتعلق بهذا الموضوع ، وللغلمة المفرطة صار العربي مزواجًا يتشبب بالنساء ويتغزل ، والتشبيب من أمارات الرجولة عند الجاهليين " [٣]

وهناك من الباحثين والنقاد من كانت له رؤية تتوسط بين هذين الرأيين السابقين في أسباب ذيوع وانتشار الغزل في الشعر الجاهلي ، منهم أحمد إبراهيم الهاشمي الذي يرى أن العرب نظموا الشعر في كل ما أدركته حواسهم وخطر على قلوبهم من فنونه وأغراضه الكثيرة كالنسيب ويسمى التشبيب والتغزل ، وطريقته عند الجاهليين كانت بذكر النساء ومحاسنهن وشرح أحوالهن ، وكان له عندهم المقام الأول من بين أغراض الشعر حتى لو انضم إليه غرض آخر قدم النسيب عليه وافتتح به القصيد : لما فيه من لَهْمِ النفس وارتياح الخاطر ولأن باعثه الفذ هو الحب وهو السر في كل اجتماع إنساني، والبدو أكثر الناس حباً لفراغهم. [٤]

ولقد نظر كثير من الباحثين إلى الغزل الجاهلي باعتباره تجربة خاصة تعبر عن ذاتية الشاعر أكثر من الأغراض الشعرية الأخرى ، التي تعبر عن جماعية الشعور الذي فرضته قبلية المجتمع ، غير أن هذه الرؤية تكاد تكون ظالمة لواقع الحياة وطبيعتها

---

[٣] - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د: جواد علي طبعة دار الساقي الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ ج٨ ص٢٢١

[٤] - جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب أحمد إبراهيم الهاشمي مؤسسة المعارف . بيروت ج٢ ص٢٥

في ذلك العصر ، وتجعل من مكانة المرأة وأثرها مجرد شكلٍ شعري خاص ارتبط بذات ووجدان الشاعر فحسب .

والحقيقة أن مثل هذه الفنون الشعرية التي يطلقون عليها خاصة أو ذاتية " لا تكون بتجريدها من طابع المجتمع وحصرها في نطاق الذات الفردية ، بل في أن تكون ذات دلالة جماعية مشتركة : فالشاعر هنا يبكي الديار لكل من كابد فراق الأحبة ، والراثي يعبر عن مأساة عامة يتعرض لها كل حي ، ويستثير أشجان الجماعة ، لكننا لم نلتفت إلى قيمة هذه الفنون الشعرية الخاصة من حيث هي معبرة عن موقف مشترك ينفرد الشاعر بالترجمة عنه وإن لم ينفرد بمعاناته " [٥]

وعلى ذلك يصبح الحب والغزل بالمرأة والحنين إليها ، والتوجع لفقدها ظاهرة اجتماعية اشترك فيها الجميع في هذا العصر ولم يختص بها الشاعر بمفرده ، ولكنه كان أكثر امتلاكًا للغة والشعر في التعبير عنها ، وأكثر جرأة في التصريح بها ، وكيف لا وهو المتحدث الرسمي باسم الوجدان الجمعي .

والواقع أن الشاعر الجاهلي أحس بأن المرأة هي أحد أهم مقومات وجوده ، وبأنها الجزء المتمم لأنسه وسعادته فكان الغزل والتشبيب رسوله إليها ، من أجل أن يكسب مودتها ويستميل مشاعرها وعواطفها وقلبها نحوه ، فالغزل كما عرفه القدماء هو التصابي والولع بمودات النساء ، وإلفهن والتخلق بما يوافقهن ، ولذلك لم يكن غريبا أن نرى البحتري وهو من كبار شعراء العصر العباسي يقول في ذلك ناصحاً الشعراء أو ملفتاً لأهم خصائص هذا الفن الشعري :- " فإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقًا ، والمعنى رشيقًا ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، والتعلل باستنشاق النسائم وغناء الحمائم ، والبروق اللامعة ، والنجوم الطالعة، والتبرم من العذال، والوقوف على الأطلال " [٦]

ويقول القاضي الجرجاني: " وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم، والغزل المتهالك فإن اتفقت لك الدماثة والصبابة ، وانضاف الطبع إلى الغزل فقد جُمِعَتْ لك الرقة من أطرافها " [٧]

ويرى بعض النقاد أن من أهم سمات شعر الغزل أن يمتاز على العموم بالرقة واللين والسهولة في غير ابتذال ما دام عبارة عن هذه العاطفة الرقيقة ، وأن لا تخرجه الشكوى

---

[٥] - قيم جديدة للأدب العربي بنت الشاطئ دار المعرفة الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ ص٣٣

[٦] - خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي ت. عصام شقيو . دار ومكتبة الهلال . بيروت ج٢ ص٣٢

[٧] - الوساطة بين المتنبي وخصومة عبد العزيز الجرجاني . تحقيق . محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة عيسى البابي الحلبي ط١ . ص ١٨

أو الثورة عن رقته وعذوبته لأن مداره الأول إلف النساء والتعلق بهن ، وخضوع النفس لداعي المحبة والغرام ، فالكلمات رقيقة خفيفة ، عذبة تحكي نوازع نفسية رقيقة ، كالشوق والدلال والفتنة والهيام، أو حادة مقبولة كالصد والجوى والسهاد لأن هذه الألفاظ جاءت في الأصل مشربة بهذه المعاني ، والصور كذلك مشتقة من الشمس المشرقة والبدر السافر والأزهار الناضرة ، أو من الهجر القاتل ، والنار المضطرمة ، والحرقة الممضة ، أو من اللهو الحلو والعبث السخيف ، والجمل سهلة بسيطة ، لا تعقيد ولا إغراب وبخاصة في هذا الغزل الصادق الذي يصدر عن القلب فلا يعوزه صنعه ولا يتوارى خلف التراكيب ، وعبارة النسيب تتمثل في الموسيقى الجميلة. [٨]

ولقد كان لهذه الخصائص الفنية أثرها الواضح في شعر الغزل لديهم ، من رقة الأسلوب وعذوبة الألفاظ ، ورهافة الصور والتشبيهات ، وهو ما دفع الدكتور شوقي ضيف لأن يقول :- " وأما الغزل فلعله أقرب موضوعات الشعر الجاهلي إلى الغناء والرقص عليه " [٩]

وأيًّ ما كان الأمر فقد تربع الغزل والتشبيب بالمرأة على عرش الشعر في هذا العصر ، حتى لا تكاد تخلو قصيدة منه ، وإن لم يكن هو الغرض الأساسي فيها ، فلابد للشاعر أن يقف بديار المحبوبة الراحلة ، ويبكي لفراقها وهجرها الذي أورثه ألمًا ولوعةً ومزق فؤاده المتيم بها ، فاستحالت الحياة بفراقها هجيرًا وعذابًا يحاصره أينما حل كما يقول عبيد بن الأبرص :-

نأتكَ سُلَيْمَى فالفـؤادُ قريحُ وليسَ لحـاجاتِ الفؤادِ مريحُ [١٠]

إنه كاره للحظة الفراق وهو يلعن هذا الوقت الذي سترحل فيه حبيبته ، لأنه يشعر أن رحيلها هو رحيل الحياة عنه ، وهو مغادرة الروح لجسده ، فهذا النابغة وقد آلمه رحيل حبيبته يبدي تشاؤمه من ذلك الغد الذي هو موعد فراقها عنه فيقول :-

لا مَرْحباً بغدٍ ولا أهلاً بهِ إنْ كانَ تفريقُ الأحبةِ في غَدِ [١١]

وهاهو بعد فراقها يستحضر طيفها ، وتنتابه الأشواق ، فيبدي التحسر على رحيل صاحبته التي لم تترك له إلا طيفها ، بينما هي نائية عنه ، بينه وبينها صحراوات شاسعة وجبال وتلال ، تماما مثلما يقول طرفة بن العبد :-

---

[٨] - أنظر الأسلوب أحمد الشايب مكتبة النهضة المصرية ص ٨٤

[٩] - الفن ومذاهبه في الشعر العربي شوقي ضيف . دار المعارف بمصر الطبعة الثانية عشر ص ٥١

[١٠] - ديوان عبيد بن الأبرص ت : أشرف أحمد عدرة . دار الكتاب العربي . بيروت ص ٣٩

[١١] - ديوان النابغة الذبياني شرح وتقديم عباس عبد الساتر دار الكتب العلمية . بيروت ص ١٠٥

سما لكَ من سلمى خيالٌ ودونَها سوادُ كثيبٍ عَرْضُهُ فأَمَايلهْ [١٢]

وربما امتدح الشاعر الأرض التي حلت بها محبوبته إكراما لها ، وإن كانت هذه الأرض هي سبب شقائه وتعاسته لأنها غيبت عنه وجه حبيبته حين رحلت إليها كما يقول الحطيئة :-

أَلاَ حَبَّذَا هِنْدٌ وَأَرْضٌ بِهَا هِنْدُ وَهِنْدٌ أَتَى مِنْ دُونِهَا النّأْيُ وَالبُعْدُ [١٣]

وهو لأجل وصالها يشد الرحال ويبدأُ الرحيل عسى أن يلقاها أو يدله عليها أحد ، فالمرأة الحبيبة هي سر البهجة والسعادة في هذه الحياة ، وهي الجانب المشرق والحاني وهي المتعة والنشوة اللتان تمنحانه الطاقة والقدرة على مواجهة ومجابهة عيشه العسير ، فهذا أمير شعراء هذا العصر ، لا يستطيع أن يواجه الحياة إلا بعد أن يتزود بزاد العشق و الوصل من محبوبته فيقول امرؤ القيس :-

خَليلَيَّ مُرّا بي على أمِ جُنْدَبِ نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ

فَإنّكُمَا إنْ تَنْظُرَانِيَ سَاعَة مِن الدهرِ تَنفعْني لَدى أمِّ جُنْدَبِ [١٤]

وما أكثر تحصرهم على الشيب الذي داهمهم والشيخوخة التي حلت بهم لا لشيءٍ إلا لأنها باعدت بينهم وبين الحب والعشق ، وكأنهم يرون في الحب كل المتعة التي تحول جحيم تلك الحياة إلى فرح وبهجة فهذا عبيد بن الأبرص يتفجع على فقدانه للحبيبة ونزول المشيب به فيقول :

تصبوا وأنَّى لكَ التَّصابي أنَّى وقَدْ رَاعَكَ المَشِيْبُ [١٥]

على أن عبيد بن الأبرص مهما غزاه الشيب أو أبعدت به النوى مقيمٌ على عهد الهوى والشوق للأحبة ، يرقب عودتهم ويمني النفس منهم بالوصال واللقاء كالظمآن الذي يبحث عن الري والسقيا ، فلا صبر لديه على العطش ولا هو بسالي الماء أو بتاركه ، إنه يعلل نفسه وهو يعلم انه ليس بمقدوره نسيانها لذا يقول :-

فإنِّي إلى سُعْدَى وإنْ طالَ نَأيُها إلى نَيْلِها ما عِشتُ كالحائمِ الصديِّ [١٦]

ويصور لنا النابغة عمق هذا الحب وتغلغله داخل نفس الشاعر الجاهلي ، حتى لكأنه

---

[١٢] - ديوان طرفة بن العبد ت : مهدي محمد ناصر الدين . دار الكتب العلمية . بيروت ط٣ ص ٦٣

[١٣] - ديوان الحطيئة دراسة وتبويب د: مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية بيروت ص٧١

[١٤] - ديوان امرؤ القيس ت: عبد الرحمن المصطاوي . دار المعرفة . بيروت ص ٧٤

[١٥] - ديوان عبيد بن الأبرص ت : أشرف أحمد عدرة . دار الكتاب العربي . بيروت ص٢١

[١٦] - ديوان عبيد بن الأبرص ت : أشرف أحمد عدرة . دار الكتاب العربي . بيروت ص٥٨

سهم سُدِّدَ نحو قلبه فأصابه ، في صورة رائعة بديعة ، ربما كانت هي أول صورة تشبه العشق بسهم يخترق قلب المحبوب فيقول :-

في إثر غانيةٍ رمتك بسهمها فأصابَ قلبَكَ غيرَ أنْ لم تَقْصدِ

ولقد أصابتْ قلبَهُ في حُبِّها عن ظهر مِرْنَانٍ بسهمٍ مُصْرَدِ [١٧]

لقد كان الحب والعشق زادًا للشاعر الجاهلي ، ولا يجب أن ننخدع بما يظهره من زهد ألم به لعوارض الشيخوخة أو كبر السن ، فقد رأي الشاعر الجاهلي في هذا الحب إشباعًا لوجدانه المفتقر للحنان والرحمة من حوله ، ووجد فيه متعة جسدية وروحية افتقدها في سائر مناحي الحياة الأخرى في عصره ، فليس غريبا أن نجد هذه المشاعر الجياشة والعاطفة المشبوبة نحو المرأة في هذا الشعر ، وانظر معي ماذا فعل الحب برجل كهل عجوز من حكماء العرب ، وكيف أخرجه هذا الحب عن وقار شيخوخته ، ومهابة منزلته ليلهج بالغزل وكأنه شاب فتيٌّ نزق في مقتبل حياته ، إنَّه دريد بن الصمة حينما رأي الخنساء فأفتتن بها وأراد أن يخطبها فقال :_

حيّوا تَمَاضرَ وَارْبِعُوا صَحْبِي وقِفُوا فإنَّ وقوفَكُمْ حَسْبِي

أخْنَاسُ قَدْ هَامَ الفؤادُ بِكُمْ وأصَابَهُ تَبَلٌ من الحبِّ [١٨]

المرأة النموذج واحة جمال وخصب وطمأنينة

لقد رأى الشاعر الجاهلي في الحب وفي امتلاكه للمرأة ملاذاً لروحه المنهكة وأمانًا لوجدانه المكدود، ورأى أنه بهذا الحب وبهذه المرأة المعشوقة يتحقق له الارتواء من النشوة والمتعة الجسدية والروحية ، فهام بها ، وسعى لامتلاكها وحرص على إرضائها ونيل المودة منها ، وتكبد المشاق من أجل الوصول إليها ، ولم يكن غريباً أن نجد في القصص المنسوب إلى الجاهليين وفي شعرهم شيئًا كثيرًا يتعلق بالحب : حب الرجل للمرأة وليس العكس ، ذلك لأن في طبع الرجل التباهي والتفاخر بحبه للنساء ، أما المرأة فإن في طبعها الخجل والحياء الذي يمنعها من إظهار حبها وتعلقها بالرجل ، إضافة إلى أن المجتمع لا يسمح لها بذلك وهو يردعها أن تبوح بحبها ، ويعد ذلك نوعًا من الخروج على الآداب العامة ، ويجلب العار للبنت ولأسرتها وربما للقبيلة كلها .

ولقد تفنن الشاعر الجاهلي بشكل عام في وصف محبوبته فنعتها بأجمل الأوصاف ووجد فيها الكيان الذي يودعه كل مشاعره الرقيقة ، ويعبر من خلالها عن

---

[١٧] - ديوان النابغة الذبياني شرح وتقديم عباس عبد الساتر دار الكتب العلمية . بيروت ص١٠٦

[١٨] - الشعر والشعراء لابن قتيبة. تحقيق أحمد محمد شاكر . دار الحديث . القاهرة ١٤٢٣ هـ ج١ ص٣٣١

إحساسه بالجمال ، وإعجابه به ويكشف عن لوعته بفقدها ، فأولاها عنايته وحرص على أن يجعلها مثالا للجمال الأخاذ ، فصارت في كل شئونها ملهمةً لهذا الشاعر و الفارس النبيل ، فرحيلها يؤرقه ونظرتها تنطقه ، وهي كما نراها من خلال عينيه العاشقتين وإبداعه المتيم ساحرةَ الحسن فاتنة الملامح ، حتى ليداخلنا الشك في أنها إنسية كباقي البشر ، إنها تضوع مسكاً وزعفراناً وهي نائمة ، وتنتشر كل أصناف الطيوب منها وإن لم تتطيب تماماً كما يقول امرؤ القيس :-

أَلـمْ تَرَيَـاني كُلّمَـا جئـتُ طــارِقاً وَجـــدْتُ بهَــا طِيبــاً وَإنْ لــم تَطَيَّــبِ

عَقيلَـــةُ أتْـــرَابٍ لهِـــا لا دَمِيمَـــةٌ وَلا ذَاتُ خَــلقٍ إنْ تأمّلْـتَ جَانّــبِ [١٩]

إنها عين هذا الشاعر المحب التي أجادت في تصوير هذه الأنثى الجاهلية المتعطرة ، بجمال فمها الطيب ، ورشاقة قوامها وبهاء وجهها فهي دائماً ساحرةٌ وفاتنة ، وكأن شاعرنا يستعين بخيال رسام بارع يمده بالكثير من الصور الخلابة المتدفقة بالسحر ، والجمال ، والصفاء والطهر . فيبدع شاعرنا الجاهلي في رسم أو وصف جسد هذه الأنثى المثال بكل ملامحها الشهية والمحببة إلى النفس ، لونًا وشكلًا وشذىً ، تماما كما يصف الحطيئة محبوبته بروعة ملامحها وصفاء وجهها وبريق أسنانها الأخاذ فيقول :-

طــافتْ أَمَامَــةُ بالركبــانِ آونـــةً يَـــا حُسْــنُهُ مِــنْ قَـــوَامٍ مَــا ومنتقبَــا

إذ تسـتبيكَ بمصـقولٍ عوارضـه حُمْشِ اللثـاتِ تـرى فـي غَرْبِـهِ شَنَبَا [٢٠]

إن الشاعر الجاهلي يصور لنا حبيبته بكل مظاهر ومقاييس الجمال في عصره وهو حريص على أن يراها المتلقي في أبهى صورة ، فشفتاها كأوراق الورد ، وعيناها كعيني البقرة الوحشية ، تجمع بين سواد الليل ، ونقاء الفجر ، بسمتها تغريك دائما باستجداء اللذة ، وحديثها يوحي إليك بطعم فمها العسلي ، وأسنانها كأوراق الأقحوان ، وشعرها جدول من جداول الليل تماما كما يصفها امرؤ القيس فيقول :-

مُهَفْــهَفَةٌ بَيْضَــاءُ غَــيرُ مُفــاضةٍ ترائبُـــــها مَصْقُـــــولَةٌ كالسَّجَــــنْجَلِ

كَبِــكْرِ الْمُقــاناةِ البَيَــاضَ بصُــفْرَةٍ غَـــذَاها نَمِيــرُ الْمَــاءِ غيــرُ الْمُحَـــلّلِ

تصُــدّ وتُبْـدي عـن أسـيلٍ وتَتَّــقي بنـــاظِرّةٍ مـــن وَحــشِ وَجْــرَةَ مُطْــفِلِ

وجِيـدٍ كَجِـيدِ الـرِّئْمِ لـيسَ بفــاحشٍ إذا هـــــي نَصّـــــتْهُ وَلا بِمُعَــــــطّلِ

[١٩] - ديوان امرؤ القيس ت: عبد الرحمن المصطاوي . دار المعرفة . بيروت ص ٧٤
[٢٠] - ديوان الحطيئة دراسة وتبويب د: مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية بيروت ص ٣٩

وَفَـرْعٍ يَـزينُ الْمَـتنَ أسْـوَدَ فَـاحِمٍ أثيـــــثٍ كَقِنْـــوِ النخلـــةِ الْمُتَعَـــثْكِلِ

غـــدائرُه مُسْتَشْـزِراتٌ إلـى العُـلا تَضِـلّ العِقَـاصُ فِـي مُثَنًّـى وَمُـرْسَلِ

وَكَشْـحٍ لطيـفٍ كالجـديلِ مُخَصَّـرٍ وَسَـــــاقٍ كـــأنْبوبِ السّـــقيّ الْمُـذَلّلِ

وتُضْحِي فتيتُ الْمِسكِ فوق فراشها نؤومُ الضحى لم تَنْتَطِقْ عن تفضّلِ [٢١]

وكذلك وصف الأعشى لمحبوبته هريرة إذ يقول :-

غَـرَّاءُ فَرْعَـاءُ مَصْقُـولٌ عَوَارِضُـهَا تَمْشِي الهُوَيْنَا كمَن يَمْشِي الوَجِى الوَجِلُ

كَـأنَّ مشْيَـتَهَا مـنْ بَيْـت جَـارَتِهَا مَـــرُّ السَّحَـــابَة لاَ رَيْـثٌ وَلاَ عَجَـلُ

تَسْمَعُ للحَلْـيِ وَسْوَاسًـا إذا انْصَـرَفَتْ كَمَـا اسْتَـــعَانَ بِـريح عِشْـرِقٌ زَجِـلُ

لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الجِـيرَانُ طَلْعَتَهَـا وَلاَ تَـــرَاهَا لِسِـــرِّ الجَـــارِ تَخْتَتِـلُ

يَكَـــادُ يَصْـرَعُهَا لَـوْلاَ تَشَـــدُّدُهَا إذا تَقُـــومُ إلـــى جَـــارَاتِهَا الكَسَـــلُ

إذا تَقُـومُ يَضُـوعُ المِسْـكُ أَصْـورَةً وَالزَّنْـبِقُ الوَرْدُ مِنْ أَرْدَانِهَا شَـمِلُ [٢٢]

هكذا تكون محبوبته أو هكذا يجب أن تكون ، فإذا رأيتها رأيت ذراعين ممتلئين، كذراعي ناقة بكر طويلة العنق سمينة بيضاء لم تحمل ولم تلد ، وثديًّا أبيضًا مستديرًا مصونًا مثل حق العاج ، لم يمسسه أحد ومتني قامة طويلة لينة ، وأردافًا مكتنزة ثقيلة ، وورکًا عظيمًا ممتلئًا ، وكشحًا جميلًا جُنَّ من حسنه ، وساقين كأسطوانتي عاج أو رخام أبيض ، فيهما الخلاخيل لها خشخشة ورنين ، هذه هي مقاييس الجمال التي يعشقها الشاعر في تلك المحبوبة كما يصورها لنا عمرو بن كلثوم إذ يقول :-

تُرِيكَ إذا دَخَلْتَ عَلَى خَـلاَءٍ وَقَـدْ أمِنَـتْ عُيُـونَ الكَاشِـحِينَا

ذِرَاعَـيْ عَيْـطَلٍ أدْمَـاَء بِكْـرٍ هِجَـانِ اللّـونِ لَـم تَقـرَأ جَنِينًـا

وثَدْياً مِثْلَ حُقِّ العَاجِ رَخْصًا حصَـانًا مِـنْ أكُـفِّ اللاّمِسِـينَا

وَمَتْنَـيْ لَدْنَـةٍ سَـمَقَتْ وطَالَـتْ رَوَادِفُـــهَا تَنُـــوءُ بِمَـــا يَلِينَـــا

وَمَأكَمَـةً يَضِـيقُ البـابُ عَنهـا وَكَشْـحًا قَـد جُنِنـتُ بِـهِ جُنونـا

[٢١] - ديوان امرؤ القيس ت: عبد الرحمن المصطاوي . دار المعرفة . بيروت ص ٤٠ إلى ٤٧

[٢٢] - شرح القصائد العشر للتبريزي. إدارة الطباعة المنيرية ١٣٥٢هـ من ص٢٨٨ - ٣٩١

وَســـاريَتَي بَلَـــنطٍ أو رُخَـــامٍ يَـرِنُّ خُشَـاشُ حَلِيِهِمـا رَنينًـا [٢٣]

إنــه حـين يمتلـك تلـك المـرأة الفاتنــة السـاحرة ، ذات الملامـح العذبـة بهـذه المقـاييس الجمالية التي يهواها فكأنما سيطر على الطبيعة نفسها وامتلك الشمس والقمر ، فوجودها في حياة الشاعر يضيء له الحياة ويملؤها بهجة وسعادة كما يقول النابغة الجعدي :-

عقيليّـةٌ أوْ مـنْ هــلالِ بـنِ عــامرٍ بـذِي الرَّمـثِ مـنْ وادِي المنـارِ خِيامُهَـا

إذَا ابتسمتْ فِي البيتِ واللّيلُ دونَهـا أضــاءَ دجَـى اللّيـلِ البهـيمِ ابتســامُهَا [٢٤]

أو كما رآها النابغة الذبياني حين طلت وكأنها الشمس المشرقة في ألقٍ وروعة حين قال :_

قَامَـتْ تُـرَاءِي بَـيْنَ سَـجْفَي كَلّـةٍ كَالشّـمْسِ يـومَ طُلوعِهـا بالأسْـعَدِ [٢٥]

هذه هي صورة المرأة المعشوقة التي هام بها الشاعر الجاهلي وَلَهًا وحبًّا ورأى في امتلاكه لها امتلاك للسعادة وللذة والمتعة الجسدية والروحية ، وهي صورة حرص أن تكون نموذجًا للجمال المرغوب في عصره وبيئته ، وحرص أيضًا على أن يصف كل جزء فيها وصفًا حسيًّا مستعينًا بما يستعيره لها من صفات وتشبيهات من مفردات تلك البيئة الحيوانية والطبيعية . وهو وصف مادي لا ينشغل بالوجدان قدر انشغاله بالشكل المحسوس الذي يؤجج نهم اللذة ويشعل الشهوات .

ويؤكد على ذلك الدكتور علي الجندي فيقول :- " وإذا رجعنا إلى الموضوعات التي عالجها الشعر الجاهلي نجد أنها معالجة من الناحية المادية ، فالحديث عن كل منها يدور حول النواحي الحسية ، حتى ما كان منها معنويًّا نجده قد أصبح محسًّا كأنما تراه بعينك أو تحسه بلمسك... كما تظهر الناحية المادية بوضوح في الغزل ، إذ إن الظاهرة الغالبة فيه التغني بالأوصاف الجسدية للحبيبة ، وهكذا لو تتبعنا جميع الأغراض والموضوعات سوف نجد الناحية الحسية واضحة فيها " [٢٦]

على أنَّ هذه الصورة الحسية والنموذج الشكلي للجمال المثال في ذلك العصر لم ينفرد به شاعر بعينه دون باقي الشعراء ، بل لقد تشارك فيها معظم شعراء هذا العصر، وشاركوا في رسم ملامحها كلٌّ بحسب ما استهواه من تفاصيل في تلك الملامح، وربما

---

[٢٣] - ديوان عمرو بن كلثوم جمعه وحققه د: إميل بديع يعقوب دار الكتاب العربي . بيروت ص ٦٨ و٦٩

[٢٤] - حماسة القرشي عباس بن محمد بن مسعود القرشي . ت :خير الدين محمود قبلاوي . وزارة الثقافة السورية ص٢٧١

[٢٥] - ديوان النابغة الذبياني شرح وتقديم عباس عبد الساتر دار الكتب العلمية . بيروت ص ١٠٧

[٢٦] - في تاريخ الأدب الجاهلي د: على الجندي مكتبة دار التراث ص٤٤٨

كان هذا دليلاً على أن هذه القيم الجمالية في المرأة المعشوقة كانت هي النموذج الشائع والذوق السائد في كل المجتمع الجاهلي ، بحيث إذا نال الواحد منهم امرأة بهذه المقاييس فقد أمتلك المتعة والنشوة وحاز جمال العالم بأسره .

ويرجع الرافعي ذيوع هذا الوصف الشكلي والحسي في الغزل الجاهلي إلى أنهم لم يتحلوا بصفات الرقة والخشوع والتهالك والانحلال والرخاوة وتلك كلها صفات وأخلاق ناتجة عن التحضر والمدنية ، وهي صفات وأخلاق لا توجد في البداوة الخشنة التي طبع عليها العرب في جاهليتهم [٢٧]

المرأة طاقة سحر مشع يأسر الروح والجسد

كان الشاعر الجاهلي يعتقد أن في المرأة قوة سحرية طقوسية خيرة تؤثر في الروح والجسد ، ولعل أكبر دليلٍ على ذلك أنهم أطلقوا على أهم آلهتهم التي عبدوها أسماء أنثوية كاللات و العزى ومناة ، لذلك لم يكن غريبًا أن يستعير الشاعر لهذه المرأة صفاتٍ تدل على التقديس والإجلال في النفس ، وتظهر الأثر الخيري لها في الروح والجسد معًا، وأنظر إلى هذه الصورة التي تدل على السمو والتقديس لهذه المرأة ، التي تضيء ظلام الليل كأنها منارة راهب انقطع للعبادة ، وكيف أنها تشع بهاءً سحريًا وتفيض طاقة روحية على حبيبها ، والغريب والمدهش في الأمر أن من صاغها هو أكثر شعراء هذا العصر اتهامًا بالتعهُّرِ وعدم التعفف في غزله إنه امرؤ القيس فانظر إليه وهو يقول :-

تُضيءُ الظّلامَ بالعِشاءِ كأنَّها مَنَارَةُ مُمْسَى راهبٍ مُتَبَتِّلِ [٢٨]

أليس غريبا أن نجد مثل هذه الصورة الشعرية المعبرة عن الإجلال والتقديس للمرأة عند شاعر اتصف بالمجون واللهو ؟! أليس في هذا مبعث للشك في صحة نسبة هذا البيت له ؟! وهل كان امرؤ القيس حقًّا صادقًا في هذه الصورة أو صادرًا عن عاطفة حقيقية ؟ كل هذه التساؤلات أراها جديرةً بأن تطرح لو أننا اقتنعنا بأن الشاعر الجاهلي كان يسير في حياته كلها أو حتى في يومه الواحد سيرة واحدة .

ومن قال أن التقديس والتألُّه لديهم كان تقديسَ روحانياتٍ ووجدانيات ؟ ألم يعبدوا الأصنام وهي أحجار صنعتها أيديهم؟ ، ألم يتخذ كل منهم إلهًا له في بيته حتى يشعر بوجوده؟ ، ألم يأكلوا آلهتهم حينما جاعوا؟ ، وما ظني أنهم عددوا في عبادتهم الوثنية الآلهةَ إلا لأنهم خلعوا عليها صفات بشرية من واقعهم وبيئتهم المتصارعة فخشوا منها الخذلان والخداع ، ورأوا ألا يضعوا كل ثقتهم في إله واحد ، فإذا خذلهم هبل نصرتهم اللات ، وإذا خادعتهم العزى أنصفتهم مناة .

---

[٢٧] - انظر تاريخ آداب العربية مصطفى صادق الرافعي . دار الكتاب العربي ج٣ ص٧٥

[٢٨] - ديوان امرؤ القيس ت: عبد الرحمن المصطاوي . دار المعرفة . بيروت ص ٤٦

لقد أُغْرِقَتْ حياتُهم بكل مظاهرها في هذه المادية الحسية ، وكيف لا وهم لا يؤمنون بهذا الدين الذي وحَّد كل هذه الآلهة في إلـه واحد لا يرونـه رأي العين ، إن حواسهم من سمع وبصر وملامسه وتذوق وشم هي الطريقة الوحيدة التي اعتادوها في إشباع الذات من كل متعة ولذة ، فهم ينشغلون بمظاهر هذه الطبيعة لكنهم لا يعنيهم البحث فيما وراءها من نواميس وقوانين تسيرها لذلك يهتمون بكل ما فيها من محسوسات مادية ، وهم يدركون أن هذا الرباط الذي يربط الرجل منهم بالمرأة اسمه الحب ، لكنهم لا يتوغلون في إدراك ماهيته ، إنهم يكتفون بإظهار ملامحه الشكلية وصفاته الحسية ، وقد يفحشون في ذكر هذه الصفات فيسمى حب جسدي أو غزل صريح ، وقد يتعففون عن ذكر مواطن اللذة حياءً ويكتفون بذكر الأشواق والحنين فيسمى غزل عفيف ، لكنهم مشتركون جميعا في عشق هذه المفاتن الجسدية لهذه المرأة .

لقد كان تقديسهم للمرأة المعشوقة إذن تقديس حسي فهم يرفعون مكانتها إلى درجة أن يروا فيها قوة الحياة ونبع الخير وفيض الخصوبة فكأنها تستعير من آلهتهم القدرة على الإحياء والبعث ، فلا غرو إذن أن يرى الشاعر محبوبته وقد أماتت بلاداً هجرتها وأحيت أخرى حلّت بها ، فأي قوة سحرية تلك التي تمتعت بها أسماء حبيبة المرقش الأكبر حين يقول :-

قُـلْ لأسـماءَ أنْجِـزي الميعـادَا وانْظَـرِي أنْ تُـزوّدِي منـكِ زَادَا

أينَمـا كُنـتِ أو حَلَلـتِ بـأرضٍ أو بـلادٍ أحْيَيْتِ تلكَ البـلادَا [٢٩]

وهذا هو الأعشى يصور لنا حبيبته فاتنة ساحرة ، خلابة في ملامحها ويبالغ في قوتها وقدرتها على الإحياء من الموت فيقول :-

عَهْدِي بِهَا فِي الْحَيِّ قَدْ سُرْبِلتْ بَيْضَـاءُ مِثْـلُ الْمُهْـرَةِ الضَّـامِرِ

لَـوْ أسْنَـدَتْ مَيْتـاً إلَـى نَحْرِهَـا عَـاشَ وَلَـمْ يُحْمَـلْ إلَـى قَـابِرِ

حَتَّـى يَقُـولَ النَّـاسُ مِمَّـا رَأوْا يَـا عَجَـبًا لِلْمَيِّـتِ النَّاشِـرِ [٣٠]

إنه يريد أن يطلعنا على أثرها في نفسه ونفس من يراها ، ويريد أن يخبرنا بأنها تبعثه من موات هذا الواقع الذي يلفّه ومن غيابات هذه البيئة التي ألقي فيها ، فأية منزلة تلك التي يضع معشوقته فيها ؟!

وهذه المرأة المعشوقة لفرط سحرها الذي يخلب الألباب جديرة أن تغوي راهباً

---

[٢٩] - المفضليات ت : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . دار المعارف ط ٦. ١٢٩ ص٤٣١

[٣٠] - الحماسة المغربية ت: محمد رضوان الدابة دار الفكر المعاصر . بيروت الطبعة الأولى ج٢ ص٩٠٢

عجوزاً أنقطع عن العالم وتفرغ للعبادة ، وأن تجعله يتلهَّى عن عبادته ويُسْحَرَ بحلو حديثها حتى لو كان لهوًا ماجنًا أو كلامًا تافهًا ، فسيرى فيه الرشد و الهداية ، هكذا يقدمها لنا النابغة إذ يقول :-

لَوْ أنَّها عَرَضَت لأشْمَطَ راهِبٍ عَبَدَ الْإِلَه صَرورَةٍ مُتَعَبِّدِ

لَرَنا لِرُؤْيَتِها وَحُسْنِ حَدِيثِها وَلَخالَهُ رَشَداً وَإن لَمْ يَرْشُدِ [٣١]

هكذا يخضع هذا الراهب المسن لجمالها ، دون أن يردعه عقلٌ أو تدين ، وكأن الشاعر يعطي لنفسه المبرر الأخلاقي الذي يجعله يتعبد في محراب هذا الجمال الأنثوي، و يدهشنا بأثره فيه وفي غيره من الزاهدين في الحياة .

لقد رأى الشاعر الجاهلي في المرأة تميمة النجاة التي تقيه وتمنحه السعادة والبهجة، فكأنها ساحرة وعشقها طقوس سحرية تشفي روحه النهمة ونفسه المتعطشة ، إنها سر الأسرار في حياته وهي معبده الذي يتبتل فيه وينال منه المتعة والنشوة ، لذلك لا طاقة به على احتمال بعدها عنه ولو أحاطت به نساء الأرض ، فلا يوجد من يعادلها أو يساويها في قلبه ، ولابد له أن يسرع إليها هائما على وجهه مجدًّا في السير لأنه يراها فوق كل نساء الأرض كما يقول المرقش الأصغر :-

أفَــاطِمُ لَــوْ أنَّ النِّسَــاءَ بِبَــلْدَةٍ وأنْتِ بأخْرَى لاتَّبَعْتُكِ هائِمَا [٣٢]

إن كل هذه الصور الشعرية تدل على مكانة الحب المتغلغلة في نفس الشاعر الجاهلي وأثره في انتشاله من متاهات حياته ، ونظرته للمرأة كموطن للذة والمتعة الجسدية والروحية ، تلك المرأة التي كان يعتقد أن بها قوة خارقة وطاقة إيجابية تمنحه الوجود وتمنح للوجود سعادته وبهجته ، فرأى أنه بامتلاكه لها لن ينال النشوة والمتعة فحسب ، بل يستطيع أن يقهر قسوة بيئته وشظف حياته أيضاً .

حب الجسد شهوة ونشوة

احتلت المرأة بمفاتنها الجسدية مكانًا كبيرًا في حياة الشاعر الجاهلي وفي إبداعه الشعري بشكل عام حيث رأى في مفاتنها طريقه إلى الارتواء من اللذة والامتلاء بالنشوة فبالغ في تصوير تلك المفاتن وغالى في وصف هذه التفاصيل الجسدية ، ولا يوجد شاعر من شعراء هذا العصر إلا وأسهم في ذلك بسهم أو شارك فيه بنصيب قل أو كثر ، لكنهم جميعا شركاء في ذلك لأنهم رأوا واتفقوا على أن الشهوة والنشوة وجهان لعملة واحدة ، فرأوا أن في وصفهم لهذه المفاتن تعبير عن حبهم وعشقهم لصاحبتها .

" وقد وصف الشعراء الجاهليون جمال المرأة الجسدي ، كأنما كانوا يريدون أن

---

[٣١] - ديوان النابغة الذبياني شرح وتقديم عباس عبد الساتر دار الكتب العلمية . بيروت ص١٠٩

[٣٢] - المفضليات ت : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . دار المعارف ط ٦ . ٦٥ ص ٢٤٦

تكون ماثلة أمام العيون فتسر برؤيتها ، وتنشرح النفوس بمنظرها ، وقد حاول الكثير منهم أن يتتبع جسدها جزئية جزئية ، لتُرَىَ بجمالها الكامل من ناصيتها إلى قدمها ، ويندر أن نجد شاعرًا جاهليًّا قد خصص قصيدة طويلة بأكملها للغزل ، وإنما الشائع أن القصائد الطويلة كانت غالبًا ما تبدأ بالحديث عن الأطلال ورحلة الحبيبة ، ثم الحديث عن أوصاف هذه المحبوبة ، ولكن الشعراء كانوا يختلفون في ذلك طولًا وقصرًا ، فمنهم من كان يسهب في هذه الأوصاف ، ومنهم من كان يوجز ." [٣٣]

والشاعر الجاهلي يقدم لنا صورة جسدية وحسية بالغة الدقة لمحبوبته ، كما لو كان يلتقط لها صورة فوتوغرافية تظهر كل التفاصيل والملامح بعناية فائقة ، فلا يترك شيئاً من ذلك إلا أظهره وركز عليه ، وهو يصدر في ذلك عن نوازعه الشهوانية وعواطفه التي لا تعرف الحرج أو الخجل ، لأنه يرى أن علاقته بالمرأة هي علاقة استمتاع ، وهو يجد متعة ولذة حتى في وصفه وتصويره لتلك المفاتن ، وكأنه نحاتٌ ماهر يبرز في مهارة ملامح هذه الفتنة الجسدية فيبرز لنا سحر العيون وروعة العنق المزين بالذهب الوهاج ، ورشاقة القوام ولين البطن ونعومتها ، ونفور الثديين وقد رفعا ثوبها لأعلى ونعومة الظهر الأملس في غير امتلاء وضخامة الأرداف البضة الطرية ، هكذا يصف لنا النابغة صورة المرأة المثال في الحسن والجمال في عصره في قصيدته الغزلية الطويلة التي قيل انه كتبها في التغزل بزوجة النعمان ، وكأن حواسه المفتونة بهذه الروعة الأنثوية هي التي تتغزل وتقول :-

نظرتْ بمقلةِ شادنٍ متربِّبٍ أحْوىَ أحَمَّ المقلتينِ مُقَلَّدِ
والنظمُ في سلكٍ يُزيِّنُ نَحْرَها ذهبٌ تَوَقّدَ كالشهابِ المُوقّدِ
صفراءُ كالسيراءِ أكملَ خَلْقُها كالغصنِ في غُلوائِهِ المتأودِ
والبطنُ ذو عُكَنٍ لطيفٌ طيُّه والإتبُ تنفُجُهُ بثَدي مُقعدِ
محطوطةُ المتنينِ غَيرُ مُفَاضَةٍ ريَّا الروادفِ بضَّةُ المُتَجَرِّدِ [٣٤]

والشاعر الجاهلي يعتني بهذا الوصف الحسي في غزله لمحبوبته ليظهر مدى التناسق والتناغم الجسدي لهذه الملامح الفاتنة التي تعد حبيبته نموذجا ومثالاً لها ، فيصف وجهها المشرق وخدها الأسيل وعيونها الآسرة الساحرة فيشبهها بعيون الظباء والغزلان والمها ، ويشبه رقبتها بجيد الظبي غير أنه أجمل في بريق حليه تماما كما يفعل امرؤ

---

[٣٣] - في تاريخ الأدب الجاهلي د: على الجندي مكتبة دار التراث ص٤١٥

[٣٤] - ديوان النابغة الذبياني شرح وتقديم عباس عبد الساتر دار الكتب العلمية . بيروت ص ١٠٦ و١٠٧

Doi: 10.12816/mdad.2019.48361

القيس حين يصف ذلك في محبوبته فيقول :-

تصُـدّ وتُبْدي عن أسـيلٍ وتَتَّـقي بنـاظرّةٍ مــن وَحـشِ وَجْـرَةَ مُطّــفِلِ

وَجِيدٍ كَجِـيدِ الرّئْمِ ليسَ بفـاحشٍ إذا هــي نَصّــتْهُ وَلا بِمُعَــــطّلِ [٣٥]

فهو يحب فيها الرقة في الكلام والدلال الأخاذ ، والحور في العيون وإشراقة الوجه ، ونصاعة الأسنان وطيب رائحة فمها وتقوس الحاجبين كما يقول عنترة واصفا حبيبته عبلة :-

أغـنٌ مليحُ الـدَّلِّ أحـورُ أكحـلٌ أزجُّ نقــيُّ الحــدِّ أبلــجُ أدعــجُ

لـهُ حاجبٌ كـالنونِ فوقَ جُفُونـهِ وثغرٌ كزهرِ الأقحوانِ مفلّجُ [٣٦]

ويقول المرقش الأصغر مستحسناً وجه حبيبته الأبيض المشرق المحاط بشعرها الأسود الناعم :-

أَلاَ حَبَّـذَا وَجْـهٌ تُرِينـا بَيــاضَهُ ومُنْسَـدِلاَتٍ كالمَثــانِي فَوَاحِمَــا [٣٧]

وهو يرى أن من تمام الحسن في هذه المحبوبة أن تتمتع بنهدين مستديرين وممتلئين وبيضاوين كحق العاج في صفائه كما يصفهما عمرو بن كلثوم :-

وثَدْيًا مِثْـلَ حُـقِّ العَـاجِ رَخْصًـا حصَـانًا مِنْ أكُفِّ اللاّمِسِينَا [٣٨]

أو أن يكونا كبيرين و مرتفعين نحو نحرها كما يصف الأعشى ذلك فيقول :-

قَــدْ حَجَـمَ الثَّـدْيُ عَلَـى نَحْرِهَـا فِي مُشْرِقٍ ذِي بَهْجَـةٍ نَاضِـرِ [٣٩]

وقد يغريه في محبوبته الصدر الكاعب حديث النفور وذلك لصغر سنها وحداثة أنوثتها كما يصفها المنخل اليشكري فيقول :

ولقـد دخلــــتُ علــى الفتــا ةِ الخــدرَ فــي اليــومِ المطــيرِ

---

[٣٥] - ديوان امرؤ القيس ت: عبد الرحمن المصطاوي . دار المعرفة . بيروت ص ٤٢

[٣٦] - ديوان عنترة بن شداد برواية الخطيب التبريزي . قدم له. مجيد طراد . ص٤١، ولم ترد الأبيات في تحقيق محمد سعيد مولوي

[٣٧] - المفضليات ت : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . دار المعارف ط ٦ . ٥٦ ص ٢٤٥

[٣٨] - ديوان عمرو بن كلثوم جمعه وحققه د: إميل بديع يعقوب دار الكتاب العربي . بيروت ص ٦٩

[٣٩] - الحماسة المغربية ت: محمد رضوان الدابة دار الفكر المعاصر . بيروت الطبعة الأولى ج٢ ص٩٠٢

الكاعـــب الحســـناءَ تَـــرْ فُلُ فـي الدِّمَقْسِ وفي الحرير (٤٠)

ولقد أحب الشاعر الجاهلي في حبيبته أن تكون ذات خصرٍ ضّامرٍ نحيل تماما كما يصف امرؤ القيس :-

وَكَشْحٍ لطيـفٍ كالجديلِ مُخَصَّرٍ وَســاقٍ كـأنْبوبِ السّقيّ الْمُذَلّلِ (٤١)

ويحب في المرأة أن تكون ذات ردفين عظيمين مستديرين في رخاوة ونعومة كما يصفهما النابغة :-

محطوطةُ المتنينِ غَيرُ مُفَاضَـةٍ ريَّـا الــروادفِ بضَّــةُ المتجــرد(٤٢)

أو كما يصفهما عنترة فيقول :-

وردفٌ لـه ثِقَلٌ وخِصْرٌ مُهَفْهَفٌ وخَـدٌ بِـهِ وَرْدٌ وسـاقٌ خـدلّجُ (٤٣)

ويحبون في البطن أن تكون رجراجة مترقرقة ناعمة وملساء في غير بدانة ولا نحافة ، فيشبهونها بالأقمشة والأمواج كما يصفها عنترة بن شداد فيقول :-

وبطنٍ كبطنِ السّـــابريّةِ ليّنٌ أَقَـبُّ لطيـفٌ ضـامرُ الكشـحِ مُـدمَجُ(٤٤)

أو كما يصفها النابغة فيقول :-

والبطنُ ذو عُكَنٍ لطيفٌ طيُّه والإتبُ تنفُـــجُهُ بثَديٍ مُقعدِ (٤٥)

ولقد نظر الشاعر الجاهلي إلى هذه الأوصاف الجسدية وهذه الملامح الحسية في تناسقها فرأى أنها تكون أكثر فتنة وإغراءً حين يتحرك جسد المرأة ، وذلك لأن السكون يعطل الإثارة ويجمّد تضاريس هذا الجسد الأنثوي ، لذلك فلقد أهتم كثيراً بوصف هذه الملامح وهذا الجسد متحركًا لا ساكنًا ، واستعار له كل الأوصاف التي تُمجد الحركة في الأنثى فوصفها بغصن البان والمها ومسير الغمامة و خطو القطا والنعام ، ولم يترك صفة تدل على الحركة الميساء إلا وصفها بها ، كما يتضح ذلك في قول كعب بن زهير -:

---

٤٠ - شرح ديوان الحماسة للتبريزي دار القلم . بيروت . الطبعة الأولى ص ٢٠٤

٤١ - ديوان امرؤ القيس ت: عبد الرحمن المصطاوي . دار المعرفة . بيروت ص ٤٤

٤٢ - ديوان النابغة الذبياني شرح وتقديم عباس عبد الساتر دار الكتب العلمية . بيروت ص١٠٧

٤٣ - ديوان عنترة بن شداد برواية الخطيب التبريزي . قدم له. مجيد طراد . ص٤١ ، ولم ترد في تحقيق محمد سعيد مولوي

٤٤ - ديوان عنترة بن شداد برواية الخطيب التبريزي . قدم له. مجيد طراد . ص٤١، ولم ترد في تحقيق محمد سعيد مولوي

٤٥ - ديوان النابغة الذبياني شرح وتقديم عباس عبد الساتر دار الكتب العلمية . بيروت ص ١٠٦ و١٠٧

Doi: 10.12816/mdad.2019.48361

أرَىَ أمَّ شــــدَّادِ بهـــا شِـــبْهَ ظبيــةِ تُطِـــيْفُ بمكـــحُول المَـــدَامع خَـــاذِلِ
أغنَّ غَضِيضَ الطرفِ رُخصٍ ظُلُوفُه تَــرُودُ بِمُعْــتَمٍّ مــن الــرملِ هـــائلِ
وتـــــرنو بعينـــي نعجـــةٍ أمِّ فـــرقدٍ تظـــلُّ بــوادي روضـــةٍ وخمـــائلِ
وتَفْـــتَرُّ عـــن غُـــرٍّ الثنـــايا كأنهـــا أقـاحٍ تَروَّى من عُروقٍ غلاغلِ (٤٦)

وليس من شكٍ في أن المتتبع للغزل الحسي أو الصريح في الشعر الجاهلي لابد أنه سيكتشف أن هذا الشاعر الجاهلي لم يتحرج ولم يخجل من أن يصف مناطق الشهوة والمتعة في جسد المرأة ، بل إنه لم يخفي مغامراته العاطفية والجنسية معها ، وكأنه يتلذذ بذكرها ، وسرد تفاصيلها في نوع من المباهاة والفخر ، فهذا امرؤ القيس أول من تغزل ورقق النسيب في ذلك العصر يطلعنا على التفاصيل الدقيقة لإحدى هذه المغامرات فيقول -:

تَقُـولُ وَقَدْ جَـرَّدْتُها مِنْ ثِيابِها كَمـا رُعـتَ مَكـحولَ المَـدامِعِ أتْلَعـا
وَجَـدِّكَ لَوْ شَـيْءٌ أتانـا رَسُولُهُ سِـوَاكَ وَلَكِـنْ لـم نَجِــدْ لَـكَ مَـدْفَعا
فَبِتْنـا تَصُـدّ الـوَحْشُ عَنّـا كَأنّنـا قَتِـيلانِ لـم يَعْلَـمْ لَنـا النّـاسُ مَصْـرَعا
تَجَافَي عَنِ المَأثُورِ بَيْني وَبَيْنَها وَتُــدْني عَلَــيَّ السّـــابِرِيَّ المُضَــلَّعا
إذا أخَذَتْها هِزّةُ الرَّوْعِ أمْسَكَتْ بِمَنْكِبِ مِقْدَامٍ على الهَوْلِ أرْوَعا (٤٧)

وهذا عبيد بن الأبرص يصف لنا كيف استمتع بمفاتن الجسد من هذه المرأة الشابة صاحبة الوجه المشرق والنهد الكاعب والبطن الناعمة والريق الذي يشبه العسل الممزوج بالليمون والتفاح ، إنه يقدم لنا مشهدًا جنسيًّا كاملًا دون أن يجد في ذلك حرجاً حين يقول :-

وقَـدْ تَبَطّنْــتُ مِثْــلَ الـرئمِ آنســةً رُؤْدَ الشَبَـــابِ كَعَابـــًا ذاتَ أوضــــاحِ
تُدْفِي الضـجيعَ إذا يشتو وتُخْصِرُهُ فـي الصـيفِ حين يَطِيْبُ البردُ للصـاحِي
تخــالُ ريـقَ ثناياهــا إذا ابتسمــتْ كَمَـــــزْجِ شَـهْـــدٍ بِأتْـــرُجٍّ وَتُفْــــاحِ

٤٦ - ديوان كعب بن زهير قدم له ووضع فهارسه د: حنا نصر الحتي . دار الكتاب العربي . بيروت ص ٨٣ و ٨٤

٤٧ - ديوان امرؤ القيس ت: عبد الرحمن المصطاوي . دار المعرفة . بيروت ص ١٢٦

كَـــأنَّ سُنَّتَهـــا فـــي كُـــلِّ دَاجِيـــةٍ حـينَ الظـلامُ بَهِيـمٌ ضَـوءُ مصـباحِ [٤٨]

وهو إذ يفعل ذلك فإنما يفعله عن رغبة وشهوة لا تعتريه وحده بل تشاركه فيها محبوبته ، وهو لا يتحرج أيضاً في أن يفصح عن ذلك ولو بالإشارة فيقول :-

ولقدْ أدْخُلُ الخِبَاءَ على مهـ ـضومةِ الكشحِ طِفْلَـةٍ كـالغزالِ
فتعاطيـتُ جيـدَهَا ثـم مالـتْ مَـيَلانَ الكثيـبِ بيـن الرمـالِ
ثُمَّ قالتْ فدىً لنفسكَ نفسِي وفـداءٌ لمـالِ أهلِـكَ مالـي [٤٩]

والواضح من هذا الغزل الحسي وهذا الحب الجسدي أنهم كانوا يرون أن اغتنام النشوة الروحية وارتواء النفس المتعطشة إلى الحب والحنان والبهجة لم يكن له سبيل إلا عبر إشباع حواسهم من اللذة الجسدية والمتعة الحسية ، لذلك تأتي أوصاف المرأة المعشوقة مشهية ومغرية لهذه المتعة الحسية ، حتى لَيُرَىَ فيها إغواءٌ وتحريضٌ للمتلقي بالنهلِ من هذه المفاتن الساحرة باعتبار أن هذا هو الحب ، وأن هذه المرأة الفاتنة الملامح هي الطريق إلى السعادة والنشوة الروحية ، فلا عجب إذن أن نرى الأعشى وهو يصور تلك المرأة يرى أن أعظم صفاتها أنها ماهرة في منح تلك اللذة الجسدية للرجل إذ يقول :-

إذا ثُلاَعِـبُ قِـرْناً سَـاعَةً فَـتَرَتْ وَارْتَـجَّ مِنْهَـا ذَنُـوبُ المَـتْنِ وَالكَفَلُ
صِفْرُ الوِشَاحِ وَمِلْءُ الدِّرْعِ بَهْكَنَةٌ إذا تَـأتّى يَكَـادُ الخَصْـرُ يَنْخَـزِلُ
نِعْمَ الضّجِيعُ غَدَاةَ الدّجْنِ يَصْرَعُهَا لِلَـذّةِ المَـرْءِ لاَ جَـافٍ وَلاَ تَفِلُ [٥٠]

ويبدو أن إغراق الحواس في المتعة الجسدية كان ظاهرة عامة في ذلك المجتمع ، فحتى الشعراء الذين اشتهروا بتعففهم وبحبهم العذري كعنترة بن شداد نجده قد شارك في تلك الظاهرة وإن لم يسهب فيها ، وفي ذلك تقول الدكتورة ناهد الشعراوي :- " وكان عنترة كسائر الجاهليين لا يمكنه أن يغفل الجسد في علاقته بالمرأة ، وحتى سائر المتيمين لم يغفلوا الجسد ولم يتخلوا عن الجنس ، إذ لا ينبغي أن يبقى الشاعر معزولاً ، فلا يوجد فم يقبل نفسه ، وإلا لصار العاشق غُفلاً ، أو قطعة مهملة تترك وحيدة ، تموت في البرية كأي حجر " [٥١]

---

[٤٨] - ديوان عبيد بن الأبرص ص٤٣
[٤٩] - ديوان عبيد بن الأبرص ص٩٨
[٥٠] - شرح القصائد العشر للتبريزي إدارة الطباعة المنيرية ١٣٥٢هـ ص٢٩١
[٥١] - عناصر الإبداع الفني في شعر عنترة د: ناهد الشعراوي . دار المعرفة الجامعية . ص١٨٩

لذلك لم يكن غريبًا أن نرى عنترة بن شداد وهو ينهل من هذه المتعة الحسية ويشارك فيها ما أمكنه المشاركة فيرصد لنا تلك اللحظات التي أشبع فيها حواسه من هذه اللذة فيقول :-

لهوتُ بِها والليلُ أرخى سُدُولهُ إلى أنْ بدا ضوءُ الصباحِ المُبَلّجُ
أرَاعِي نُجومَ الليلِ وهي كأنَّها قواريرُ فيها زئبقٌ يَتَرَجْرَجُ
وتحتي منها ساعدٌ فيه دملجٌ مضيءٌ وفوقي آخرٌ فيه دملجُ [٥٢]

وهم يحبون أن يجمعوا بين أكثر من لذة في وقت واحد ، فكثيرًا ما مزجوا بين تعاطيهم الخمر والمتعة الجنسية وكأنهم يريدون أن يعبوا ما أمكنهم من تلك المتع بدون ملل أو تراخٍ ، وكيف لا وهم يرونها النعيم في حياةٍ مهددة في أية لحظة ، وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص :-

ولهوةٍ كرضابِ المسكِ طالَ بِهَا في دَنِّها كَرٌّ حَوْلٍ بعدَ أحْوالِ
باكرتُها قبلَ ما بَدَا الصباحُ لنا في بيتِ مُنْهَمِرِ الكفينِ مِفْضَالِ
وعبلةٍ كمهاةِ الجوِّ ناعمةٍ كأنَّ ريقتُهَا شِيْبَتْ بِسِلْسَالِ
قد بتَّ ألْعِبُهَا وَهْنَاً وتُلْعِبُنِي ثمَّ انصرفتُ وَهِيْ مِنِّي عَلى بَالِ [٥٣]

لقد كان الحب من وجهة نظر الشاعر الجاهلي وربما المجتمع كله هو النهل حتى الارتواء من تلك المفاتن الجسدية للمرأة ، وكأن مظاهره لابد أن تكون أفعالا حسية ومشاهد جنسية ، ولا غرابة في ذلك فحياة الشعوب والأمم أشبه ما تكون بحياة الإنسان منا ، لها طفولتها وشبابها وكهولتها ، وهم كانوا كالإنسان في طفولته لا يدرك الأشياء ويتعرف عليها إلا من خلال تلك الحواس .

ويرى الدكتور عفيفي عبد الرحمن أن صورة المرأة عند الشعراء الجاهليين انطوت على عنصرين هامين ، الأول : هو جسد المرأة منظورًا إليه من الخارج ، أما العنصر الثاني : فهو علاقة الرجل بالمرأة من حيث هي الشق الآخر للوجود البشري ، ولعل السمة الأكثر طغيانًا على التقنية الشعرية المتعاملة مع العنصر الأول هي النظر إلى المرأة من خلال الكائنات الطبيعية وعناصر البيئة ، الأمر الذي من شأنه أن ينمّ عن علاقة من نوع ما بين الطبيعة والجنس ، وأما ما يتميز به العنصر الثاني فهو تقديم مواقف الفراق واختلال العلاقات العشقية ، وهو ما قد يوحي بالحرمان من الإشباع

[٥٢] - ديوان عنترة بن شداد برواية الخطيب التبريزي . قدم له. مجيد طراد ص٤١ ، ولم ترد في تحقيق محمد سعيد مولوي

[٥٣] - ديوان عبيد بن الأبرص ص١٠٤

العشقي في مجتمع قد ثَبَّتْ أعرافًا قمعية صارمة [٥٤].

وليس من شكٍ في أن للبيئة الجاهلية أكبر الأثر في شيوع تلك القيم الحسية والمادية التي غلبت على المجتمع آنذاك ، وكان لجفاف تلك الصحراء التي عاشوا فيها دور آخر في ضعف خيال الشاعر فجاء غزله وصفا للجمال الخارجي ، دون أن يهتم كثيرًا بالجمال النفسي والخُلقي ، فكان يتفنن في رسم صورة هذا الجمال في العين وسائر الحواس ، دون أن ينشغل بما يتركه هذا الجمال من أثر في النفوس ، لذلك بدا الغزل غارقًا في المادية النابعة من صميم الطبيعة الجاهلية ، ولا شك في أن الشاعر الجاهلي قد جاء بصورة المرأة متطابقة تمام التطابق مع مثال المرأة في الذهن الجاهلي ، وأنه دمج هذه الصورة بأشدِّ حاجاته النفسية إلحاحًا وهي إشباع الذات .

الغزل العفيف وشعر المتيمين

على الرغم من ذيوع الحب الجسدي للمرأة في تلك البيئة وهذا العصر وما تبعه من انتشار للغزل الحسي بها ، فإننا لا نعدم نماذج من هذا الشعر الذي تغزَّلَ فيه الشعراء بالمرأة دون أن يظهروا هذه الشهوة الجنسية ، ولا تلك الرغبة في الاستمتاع الجسدي بها ، وهذا النوع من الغزل يسمى غزلاً عفيفًا أو يلقب بشعر المتيمين ، وفي هذا الغزل يتنبه الشاعر الجاهلي إلى أن في المرأة جمالًا آخر غير فتنة جسدها ، فيتبين أن لها جمالاً روحيًا وصفاتٍ معنويةً ترتاح لها نفسه وتطمئن بها روحه .

وهذا النوع من الغزل يعد الإرهاصات الأولى لما سمي بعد ذلك بالغزل العذري في منتصف القرن الأول الهجري نسبة إلى قبيلة عذرة ، وذلك عندما تحضر العرب ورقت طباعهم وهذب الإسلام من أخلاقهم ، وكانت هناك أسباب حضارية أخرى ساعدت على انتشاره وذيوعه ، لعل أبرزها انتشار الغناء ، " وبذلك اختلف في جوهره عن النسيب الذي كان يوضع في مقدمات القصائد الجاهلية ، وقد تأثر بنظرية الغناء التي وضعها الموالي في مكة والمدينة ، كما تأثرت جوانب منه بما ملأ به الإسلام نفوس العرب في بوادي نجد والحجاز من نُبْل وتسام وطُهْر ، فظهر الغزل العذري العفيف عند جميل وأضرابه ". [٥٥]

على أننا لا نشك في أن بذور مثل هذا الغزل كانت قد وضعت في تربة الإبداع الشعري في العصر الجاهلي ، فقد وجدنا من شعراء الجاهلية من تيم بمحبوبته و أخلص لها في العشق والحب ، وهام بها وأوقف غزله عليها ، ومن هؤلاء عنترة والمرقش الأكبر والمرقش الأصغر ، فهم من المحبين المتيمين الذين انشغل غزلهم بواحدة ، وكان غزلهم العفيف هو البذرة التي نتج عنها شجرة الغزل العذري بعد ذلك ، ولعل هذا ما دفع الدكتور شوقي ضيف لأن يقول :- " على أن منهم من كان يتسامى في غزله حتى

---

[٥٤] - الأدب الجاهلي في أثار الدارسين د: عفيفي عبد الرحمن . دار الفكر ص ٢٥٨

[٥٥] - الفن ومذاهبه في الشعر العربي شوقي ضيف . دار المعارف ط١٢ ص ٣٥

ليمكن القول بأن الغزل العذري له أصول في الجاهلية عند عنترة وأضرابه ، ومن المؤكد أن المرأة الحرة لم تكن ممتهنة عندهم ، بل كانت في المكان المصون ، وكان الشاعر يستلهمها شعره ، ولذلك كان يضعها في صدر قصيده ، ونُحِسُّ عند كثيرين منهم - وخاصة فرسانهم من مثل عنترة- أنهم يقدمون مغامراتهم في الكرم وفي الحرب لها لينالوا حبها " [٥٦]

ويتميز هذا الغزل بالعفة والروحانية فهو لا ينشغل بمفاتن الجسد الأنثوي ، ولا يغرق في وصف ملامحه ، ولكنه يحفل بوصف مشاعر العاشق وما يلاقيه من الأشواق ومن لوعة الفراق ، وما تكابده النفس من هجر المحبوبة والحرمان منها ، والشاعر المتيم يصدر في ذلك كله عن عاطفةٍ صادقةٍ و مخلصة لحبيبته لا تتحول عنها إلى غيرها ، فهو يتحمل في سبيلها كل المصاعب والأهوال ، وربما يحرم نفسه من المتع الحسية المتاحة له في سبيل الإخلاص لها ولحبها ، فهذا عنترة بن شداد الفارس الشجاع الذي تعجب به النساء ويتقربن إليه ويبذلن الود الخالص له ، وربما كانت إحداهن أجمل وأدل من عبلته ، نراه منشغلاً عنهن جميعًا بهذا الحب الذي ملك عليه كيانه وشغل روحه ونفسه فلا يجد حاجةً في نفسه إلى الانشغال بهن وهو في ذلك يقول :-

فَلَرُبَّ أَمْلَحَ منْكِ دَلّاً فاعْلَمِي وأَقَرَّ في الدنيا لعينِ المُجْتَلِي
وصَلَتْ حِبَالِي بالذي أنا أهلُهُ من ودِّهَا وأنا رخيُّ المطّولِ [٥٧]

ولقد رأت الدكتورة ناهد الشعراوي في عنترة بن شداد نموذجًا للإخلاص في الحب والتفاني في عشق حبيبته فقالت :- " وقد عاش عنترة مخلصًا في حياته وفي فنه لعظيمين : لفروسيته وبطولاته التي يحقق فيها ذاته من ناحية ، ولعبلة وحبها من ناحية أخرى ، فكانت عبلة دائمًا أمام عينية نورًا يهتدي به في طريقه ، وحبها اليائس الذي ملأ عليه فؤاده ، وسهد جفنه ، وزاد من إحساسه بواقعه المر، كان حافزًا يدفعه إلى جلائل الأعمال ، وكان دائمًا ما يقدم لعبلة بطولاته وأمجاده تحيةً وقربانًا ، فقد أنجزها بحبها ولحبها " [٥٨]

لذلك لم يكن غريبًا أن يرفض مودة وحب هؤلاء الجميلات ويرى أن قلبه أسيرٌ لتلك المحبوبة التي تعذبه بالهجر والفراق ، وهو مقيم على حبها لا يبرحه لأنه لا يملك سلطانًا على قلبه .

ومن هؤلاء الشعراء المتيمين المرقش الأكبر وهو عاشقٌ محبٌ وَلِهٌ بأسماء ، وكثيرًا ما تغزل بها وناداها في شعره ، وشكا لها الصبابة والوجد ، ولوعة الفراق والهجر

---

[٥٦] - العصر الجاهلي شوقي ضيف دار المعارف الطبعة الأولى ١٩٦٠م ص٢١٤
[٥٧] -- ديوان عنترة بن شداد . تحقيق ودراسة . محمد سعيد مولوي . المكتب الإسلامي . ص٢٥٥
[٥٨] - عناصر الإبداع الفني في شعر عنترة د: ناهد الشعراوي . دار المعرفة الجامعية . ص ١٨٣

وهيامه الشديد بها ، وحبه الجارف لها فقد تيمته بهواها ، وشغلت نفسه بغرامها ، وفيها ولها يقول :-

قُـلْ لأسـماءَ أَنْجِـزي الميعـادَا وانْظُـــــرِي أَنْ تُـــــزوّدِي منـــــكِ زَادَا

أينَمـا كُنـتِ أو حَلَلـتِ بـأرضٍ أو بـــــلادٍ أحْيَيـــــتِ تلـــــكَ البـــــلادَا

وإذَا ما سَمعتِ من نحو أرض بمُحِـــبٍّ قـــــــد مـــاتَ أو قِـــيلَ كـــادَا

فـاعْلَمِي غَـيْرَ عِلْـمِ شَـكٍّ بـأنِّي ذاكِ وابْكِـــــي لِمُصْـــــفَدٍ أنْ يُفَادَى [٥٩]

وتُرْوَى حول المرقشِ الأكبرِ وحول حبيبته أسماء قصص كثيرة فبعضهم رأى أنها ابنة عمه كما يذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء :- " قال أبو محمد: وهو يعدّ من العشّاق ، وصاحبته ابنة عمه أسماء بنت عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، وكان أبوها زوّجها رجلاً من مراد ، والمرقّش غائب ، فلمّا رجع أُخْبِرَ بذلك ، فخرج يريدها ، ومعه عريف له من غفيلة ، فلما صار في بعض الطريق مرض ، حتّى ما يحمل إلّا معروضًا ، فتركه الغفيليّ هناك في غار ، وانصرف إلى أهله ، فخبّرهم أنّه مات ، فأخذوه وضربوه حتّى أقرّ فقتلوه ، ويقال إن أسماء وقفت على أمره ، فبعثت إليه فحمل إليها، وقد أكلت السّباع أنفه " [٦٠]

ولقد رأي البعض الآخر أنها أسماء بنت المنذر ملك الحيرة كما يقول ابن سعيد الأندلسي :- " وهو أحد المتيمين ، وسار في المثل : "أتيم من المرقش" ، لأنه عشق أسماء بنت المنذر ملك الحيرة ، فقطع إبهامه وجدًا عليها وقال :-

أَلَـمْ تَـرَ أنَّ المـرءَ يَجْـذمُ كَفّـهُ ويَجْشِمُ مِنْ أَجْلِ الحبيبِ المَجَاشِمَا [٦١]

ولعل هذا ما دفع الجاحظ لأن يتعجب من أمر هؤلاء المتيمين وأحوالهم في العشق فيقول : - " لم نجد أحدًا من الناس عشق والديه ولا ولده ، ولا من عشق مراكبه ومنزله، كما رأيناهم يموتون من عشق النساء " [٦٢]

و لقد مات المرقش الأكبر من فرط العشق والصبابة وهو يبحث عن محبوبته أسماء ، فضرب به المثل في إخلاصه لها ولحبها ، حتى أن المرقش الأصغر ابن أخيه - وهو من المتيمين أيضًا - عندما أراد أن يصف عشقه لحبيبته سلمى لم يجد مثالاً للوفاء في

---

[٥٩] - المفضليات ت : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . دار المعارف ط ٦ . ١٢٩ ص٤٣١و٤٣٢

[٦٠] - الشعر والشعراء . تحقيق أحمد محمد شاكر . دار الحديث . القاهرة ١٤٢٣ هـ . ج١ ص٢٠٧

[٦١] - نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ابن سعيد الأندلسي ت :الدكتور نصرت عبد الرحمن مكتبة الأقصى، عمان – الأردن ص٦٢٥

[٦٢] - رسائل الجاحظ تحقيق وشرح . عبد السلام محمد هارون . مكتبة الخانجي ١٩٦٤ ج٣ ص١٤٢ وما بعدها

 Doi: 10.12816/mdad.2019.48361

الحب والإخلاص أفضل منه ، فحاول أن يظهر لسلمى أن حبه فاق حب عمه لأسماء فقال :-

فوجدي بسلمى فوقَ وجدِ مرقشٍ   بأســـماءَ إذْ لا يستفـــيقُ عـــواذِلُهْ

لعمـري لمـوتٌ لا عقـوبةَ بعـدَهُ   لـذي البثِّ أشفى من هوىً لا يزايلُـهْ [٦٣]

وليس من شك في أن هذا الحب الروحي الذي لا ينطلق من غريزة جنسية أو شهوة جسدية كانت ملامحه بارزة عند هؤلاء الشعراء المتيمين ، فهم يرون _ كما عرضنا لشعرهم _ أن لذة الحب أسمى وأعلى من لذة الحواس والجسد ، فالحب بالنسبة لهم غذاء روحي ، وشفاء نفسي من كدر هذه الحياة ، بل إنهم يرون في عذابه متعة وفي معاناته راحة ، والحياة بدون هذا الحب شبيهة بالموت ، ولقد ظهر لهذا الحب خصائص وسمات لديهم نستشفها من أشعارهم وأخبارهم .

غير أننا يجب أن نعترف أنه بجانب هؤلاء الشعراء المتيمين الذين أوقفوا غزلهم على محبوبة واحدة ، نجد أيضًا الكثير من شعراء هذا العصر وقد أوردوا في بعض غزلهم هذا الوله والوجد والصبابة التي ميزت شعر المتيمين بشكل خاص ، ومن ذلك قول بشر بن أبي خازم :-

سَمِعَتْ بِنا قِيلَ الوُشَاةِ فأصْبَحَتْ   صَــرَمَتْ حِبالَــكَ فــي الخَلِــيطِ المُشْــئِمِ

فَظَلَلْتَ من فَرْطِ الصَّبابةِ والهَوَى   طَــرِباً فُـــؤَادُكَ مثلَ فِعْــل الأيْهَمِ [٦٤]

و لطرفة بن العبد غزلية حسية لكنه يفتتحها بهذا اللون من الغزل العفيف الذي يتسم بسمات شعر المتيمين فيقول :-

أصَحَوتَ اليومَ أمْ شاقتْكَ هرّ   ومــن الحـــبِّ جنـــونٌ مُســتَعِرّ

لا يكــنْ حــبُّكِ دَاءً قــاتلًا   لَـيْسَ هـــذا مِنْـكِ مَــــاويَّ بِحُــرّ [٦٥]

وللنمر بن تولب أبيات يبدأها بهذا اللون من الغزل العفيف الذي يشف عن صبابة ووجد وغرام يحاول إخفاءه فلا يستطيع فيقول :-

٦٣ - معجم الشعراء للمرزباني بتصحيح وتعليق : الأستاذ الدكتور ف . كرنكو دار الكتب العلمية، بيروت ص٢٠٢

٦٤ - المفضليات ت : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . دار المعارف ط ٦ . ٩٩ص٣٤٦

٦٥ - ديوان طرفة بن العبد . ت : مهدي محمد ناصر الدين . دار الكتب العلمية . بيروت ط٣ ص ٣٩

صَحَا القلبُ عنْ ذِكْرِهِ تَكَتَّمَا	وكــانَ رَهِينًــا بِهــا مُغْرَمَــا
وأَقْصَــرَ عَنْهَــا وآيَــاتُهَا	يُذَكِّــرْنَهُ دَاءَهُ الأَقْــدَمَا ([٦٦])

ولعلقمة بن عبدة الملقب بعلقمة الفحل قصيدةٌ نَافَرَ بها امرأ القيس ، تغزَّل في مطلعها بغزل عفيف رقيق يقول فيها :-

ذَهَبَتْ من الهُجْرَانِ في غَيْرِ مَذْهَبِ	ولم يَكُ حقاً كُلُّ هذا التجنُّبِ ([٦٧])

شعر المتيمين انعكاس لظمأ الروح:

ولقد جاء غزل هؤلاء المتيمين تعبيرًا وتجسيدًا للحياة في ظمأها الأبدي وفى حنين الروح للجسد ، واتسم هذا اللون من الغزل بصفات تجسدت في ذات الشاعر المحب من الوله والوجد والصبابة لذات المحبوبة ، ومن الشوق والحنين إلى رؤيتها ووصلها ، والتفجع لرحيلها وفراقها ، وهو ينظر إليها باعتبارها نبع الحياة وسقيا الروح ، فلا طاقة له بالابتعاد عنها ، ولا احتمال له على هجرها ، فإذا ما هجرته شعر بالألم والحسرة وظل مقيمًا على حبها ساعيًا إلى لقائها ، فإذا ما نظرنا إلى كل هذه السمات والخصائص وجدناها ناضحةً في شعرهم بارزةً فيه ، وهذا واضح في أبيات المرقش الأصغر وهو يبدي الفجيعة والحزن والبكاء على أطلال حبيبته الراحلة فيقول :-

أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ مـاءُ عَيْنَيكَ يَسْفَحُ	غَـدَا مـن مُقـامٍ أَهْلُـهُ وتَرَوَّحُـوا
تُزَجِّي بهـا خُنْسُ الظِّبَـاءِ سِخَالَها	جَآذِرُهـا بـالجَوِّ وَرْدٌ وأصْبَحُ ([٦٨])

وفي غزل عبدة بن الطبيب نجد تلك الخصائص والسمات وهو من الشعراء المتيمين المخضرمين واسمه يزيد بن عمرو بن وعلة بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم ، ولقد ذكره ابن كثير في رواية له عن تولي امرأةٌ حكم فارس فقال :- " عَبْدَةُ بْنُ الطَّبِيبِ السَّعْدِيُّ ، وكان قد هاجر لِمُهاجرةِ حليلةٍ له حتَّى شهد وقعة بابل هذهِ ، فَلَمَّا آيَسَتْهُ رَجَعَ إلى البادية وقال :-

هَلْ حَبْلُ خَوْلَةَ بَعْدَ الْبَيْنِ مَوْصُولُ	أَمْ أَنْــتَ عَنْهَــا بَعِيــدُ الــدَّارِ مَشْــغُولُ
وَلِلأَحِبَّـــةِ أَيّـــامٌ تَذَكّـــرُهَا	وَلِلنَّـــوَى قَبْـــلَ يَوْمِ الْبَيْنِ تَـأْوِيلُ ([٦٩])

وهذا البُرَيق أحد شعراء هذيل واسمه عِياض بن خويلد الخناعي وهو يتحسر على

---

[٦٦] - مختارات شعراء العرب لابن الشجري شرح وضبط : محمود حسن زناتي . مطبعة الاعتماد ج١ ص ١٦

[٦٧] - الشعر والشعراء لابن قتيبة ج١ ص٢١٤

[٦٨] - المفضليات ٥٥ ص٢٤١

[٦٩] - البداية والنهاية لابن كثير دار الفكر ج ٧ ص ١٧

رحيل حبيبته ليلي وعلى رحيل العمر في انتظارها ، فلا هي تعود ، ولا هو قادرٌ على نسيانها لفرط وجده وصبابته بها فيقول :-

أَلَمْ تَسْلُ عَنْ ليلى وقَدْ نَفَدَ العُمْرُ وقَدْ أَقْفَرَتْ منها المَوازِجُ فالحُضْرُ

وقد هَاجَنِي منها بِوَعْسَاءَ قرمدٍ وأَجْزَاع ذِي اللّهباءِ مَنْزِلَةٌ قَفْرُ [٧٠]

وهذا الشاعر المتيم يصور ما يعتريه من مشاعر وأحاسيس عندما تهب رياح البين والفراق بينه وبين حبيبته ، كما هو الحال لدى قيس بن الحدادية أحد الشعراء الصعاليك عندما كان يرحل عن حبيبته أو يتركها للإغارة ، فهو يرسم لوحة شعرية فريدة تقوم على الحوار بينه وبين حبيبته ، وتتضمن مشاعر الحزن والألم بينهما على هذا الرحيل ، وما تعاور قلبيهما من لوعة وأسى ، وما انتابت عيونهما من عبرات حارة لوشك البين وألم الفراق فيقول :-

بَكتْ مِنْ حَدِيثٍ نَمَّهُ وأشَاعَهُ ولفّقَهُ واشٍ مِنَ الْقَوْمِ رَاضِعُ

وَقَالَتْ وعينَاها تفيضانِ بِالبُكَا من الوجدِ خَبِّرني مَتى أَنْتَ رَاجعُ

فَقلتُ لَهَا تاللهِ يَدْرِى مُسَافرٌ إذا أضْمَرَتْهُ الأَرْضُ مَا اللهُ صَانِعُ

فَلَا يَسْمَعَنْ سِرِي و سِرَّكِ ثَالِثٌ فَكُلُّ حَدِيثٍ جَاوزَ اثْنَيْنِ شَائِعُ

وَكَيفَ يَشِيْعُ السِّرُّ منِّى ودُونَهُ حِجَابٌ وَمِنْ دُونِ الْحجابِ الأضَالِعُ [٧١]

والشاعر الجاهلي المتيم بالحب ينصاع لرغبات محبوبته ويرى فيها كل العدل إلا أن تظلمه بالهجر والفراق أو أن تستمع للوشاة والعذال ، لأنه لا طاقة به على تحمل ذلك ويتضح هذا في شعره تمامًا مثلما يرد في قول عنترة بن شداد :-

يا عبلُ أنتِ سوادُ القلبِ فَاحْتَكِمِي فِي مُهْجَتِي وَاعْدِلِي يَا غَايةَ الأجلِ

وإنْ تَرَحَّلْتِ عَنْ عَبْسٍ فَلا تَقِفِي فِي دارِ ذلٍ ولا تُصْغِي إلى العَذَلِ[٧٢]

هكذا تصبح الحبيبة لديه هي محور حياته ومركز هذا العالم الذي تطوف حوله الأشياء ، وتصبح ذاته وروحه ونفسه معلقة بإرادتها ، فمنها يستمد سعادته وتوازنه النفسي ، وبها يستطيع مواجهة صعاب الحياة ومشقتها ، فهو من أجلها يفعل أي شيءٍ وكل شيء ، وربما يقبل الإهانة والإذلال ما دام ذلك سيدنيه منها ، فهذا عنترة بن شداد

[٧٠] - ديوان الهذليين القسم الثالث ت : أحمد الزين . الدار القومية للطباعة والنشر . ص ٥٨

[٧١] - الحماسة البصرية أبو الحسن البصري ت: مختار الدين أحمد عالم الكتب . بيروت ج٢ ص١٣٩

[٧٢] - ديوان عنترة بن شداد برواية الخطيب التبريزي . قدم له مجيد طراد ص ١٣٦ ، ولم ترد في تحقيق محمد سعيد مولوي

فارس الفرسان وقاهر الأبطال يرضى بالإقامة الذليلة في ديار بني عبس ، فيعامل معاملة العبيد ويرعى لهم الإبل والأغنام ، وهو الذي في مقدوره أن ينال الحياة الكريمة وأن ينزل منزلة السادة والأشراف في أي حيٍّ من أحياء العرب ، لكنه يرفض ذلك ويقيم على هذه المهانة من قومه لا لشيءٍ سوى لأنه مقيد بآصرة العشق والوله ، وقلبه أسير لدى تلك المحبوبة المقيمة في بني عبس ، فحبها هو الذي يحركه ويقيده وانظر إليه حين يقول :-

ولولا الهَوىَ ما ذَلَّ مِثْلِي لِمِثْلِهِمْ ولا خَضَعَتْ أُسْدُ الفَلا للثعالبِ
فَيَا لَيْتَ أنَّ الدَّهرَ يُدْنِي أَحِبَّتي كما يُدْنِي إليّ مصائِبي
وليتَ خيالاً منك يا عَبْلُ طارقًا يرى فيضَ جفني بالدموعِ السَّوَاكِبِ
مكانكِ في جوِّ السماءِ مكانُهُ وبَاعي قصيرٌ عن نَوالِ الكواكبِ [٧٣]

وقال أيضاً :-

ولولا حبُّ عبلةَ في فؤادي مقيمٌ ما رَعَيْتُ لكم جِمَالاَ
عَتِبْتُ الدهرَ كيف يُذَلُّ مثلي ولي عَزمٌ أَقُدُّ به الجِبَالاَ [٧٤]

الميل الغريزي عند المرأة للمعذبين

لقد أدرك الشاعر الجاهلي المتيم هذه الفطرة الحانية التي طبعت مشاعر المرأة وميزتها فجعلتْ لديها ميلًا غريزيًا للمعذبين الذين صعقهم القدر ، ورغبة في مواساتهم والتخفيف عن آلامهم . لهذا فقد كان الشاعر المتيم يقدم نفسه لحبيبته جريحًا معذبًا ، ويدعوها أن تبادله حبه ليتم شفاؤه .

فما أكثر ما قدم العاشق الجاهلي نفسه لتلك المحبوبة على أنه المتيم المعذب الذي يقتله هجرها ، والأسير الراضخ لحبها ، وهي الآسرة له ، المالكة لمقاليد فؤاده ، والظالمة في حبها له ، وهو بذلك يدرك ميلها الفطري لنفي تهمة الظلم عنها ، ويعلم أن ضميرها الأنثوي الحاني سيرفض أن تكون سببًا في إيلامه فتنهض لمواساته وبذل المودة والحب الخالصين له مكافأةً على عذابه الذي يعانيه في حبها ، وهو بذلك يستجدي حنانها وحبها ووصلها له ، بإظهار ظلمها وقسوتها عليه ، وعذابه الذي يعانيه في ذلك ، تمامًا مثلما يقول عمرو بن معد يكرب :-

---

[٧٣] - ديوان عنترة بن شداد برواية الخطيب التبريزي . قدم له . مجيد طراد ص ٣٥ ، ولم ترد في تحقيق محمد سعيد مولوي

[٧٤] - ديوان عنترة بن شداد برواية الخطيب التبريزي . قدم له . مجيد طراد ص ١١٢ ، ولم ترد في تحقيق محمد سعيد مولوي

Doi: 10.12816/mdad.2019.48361

بَرانِي حُبُّ مَنْ لا أسْتَطِيعُ ... ومَنْ هُو لِلّذِي أهْوَى مَنُوعُ
وَرُبَّ مُحَرَّشٍ فِي جَنْبِ سَلْمَى ... يُعَلُّ بِعَيْبِها عِنْدِي شَفِيْعُ [75]

وربما يظهر لها مدى استهتارها بمشاعره وقلبه لأنها تعلم أنه متيم بها لا يقدر على هجرها ، وكأنها تتفنن في تعذيبه وقتله برقتها ودِلّها عليه ، فحتى دموعها تصبح سهامًا تخترق فؤاده وترديه صريعًا في هواها ، إنها مستبدةٌ به حتى في أشد لحظات ضعفها الأنثوي حينما تبكي ، لأنها تعرف أن دموعها ستقتله ، تمامًا كما يقول امرؤ القيس :-

وما ذرفتْ عيناكِ إلاّ لتضربي ... بسهميكِ في أعشارِ قلبٍ مقتَّلِ
أغَرَّكِ منّي أنَّ حُبَّكِ قاتلي ... وأنَّك مهما تأمري القلب يفعلِ ؟ [76]

وقد يحاول الشاعر الجاهلي المحب المعذب بحبه أن يصف لمحبوبته مكانتها في نفسه ، ليطلعها على مدى ما يلاقيه من وجد وهيام بها وحرص عليها ، وإن كانت لا تقدر ذلك لأنها ظالمة له لا تعرف كيف برَّحَهُ حبها ، فيثير ذلك في نفسها الشفقة عليه ويبعثها على وصله بما يليق به من حبٍّ وشوق ، ومن ذلك قول عنترة لعبلة :-

أَحِبُّكِ يَا ظَلُومُ فأنْتِ عِنْدِي ... مَكانَ الرُّوحِ مِنْ جَسَدِ الجَّبَانِ
ولَو أنِّي أقُولُ مَكانَ رُوحِي ... خَشَيْتُ عَلَيْكِ بَادِرَةَ الطَّعَانِ [77]

والشاعر المحب يستميل في محبوبته مشاعرها التي تقدر قيمة الوفاء لها والإخلاص في حبها ، فيذكرها ببقائه على عهدها رغم الفراق والهجر ، وإن زاده ذلك ألمًا ولوعة ، إلا أنه لا سلطان له على قلبه الذي ملكته ولا سبيل إلى نسيانها ، فما أحوجه إليها لتواسيه بدلًا من أصدقائه الذين رقت قلوبهم لحاله وفي ذلك يقول المخبل :-

ذَكَرْتُ بِهِ سَلْمَى وكِتْمَانَ حَاجَةٍ ... لنفسي ومَا لا يَعْلَمُ الناسُ دَاخِلُهْ
فَظَلَّ يُؤَسِّينِي صِحَابِي كأنَّنِي ... صَرِيعُ مُدامٍ بَاكَرَتْهُ نَيَاطِلُهْ
وما كَانَ مَحْتُوماً فُؤادُكَ بِالصَّبَا ... ولا طَرِبٌ فِي إثْرِ مَنْ لا تُوَاصِلُهْ

---

[75] - الاختيارين . الأخفش الأصغر . ت : فخر الدين قباوة دار الفكر المعاصر .بيروت . ص٣٦٤
[76] - ديوان امرؤ القيس ت: عبد الرحمن المصطاوي . دار المعرفة . بيروت ص ٣٤
[77] - ديوان عنترة بن شداد برواية الخطيب التبريزي . قدم له . مجيد طراد ص ١٩٦ و١٩٧، ولم ترد في تحقيق محمد سعيد مولوي

وما ذكرُهُ سَلْمَى وقَدْ حَالَ دُونَها مصـانعُ حُجْـرٍ: دُورُه ومَجَـــادِلُهْ [٧٨]

أو كما يخبرها زهير بن أبي سلمى أنه باق على ودها لا يبرحه لأنه يرى ذلك من مكارم الخلق ، ومن الوفاء لها بالعهد ، وهو لا يقبل فيها لوم العاذلات ولا تغيره صروف الدهر إذ يقول :-

غَـدَتْ عَـذَالَتَاي فَقُلْـتُ مهـلاً أفِـــي وَجْـــدٍ بِسَلْمَـــى تَعْـــذِلانِي

فَقَدْ أبْقَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنِّي عَـرُوفَ العُـرْفِ تَـرَّاكَ الهـوانِ [٧٩]

وهذا المسيب بن علس يرى في فراق حبيبته له عقابًا قاسيًا منها عليه ، فهجرها يمزق فؤاده وينغص عليه حياته ، وهو يتساءل في حزن وحسرة هل كلما رحلت مع قومها سيصاب قلبه بالألم واللوعة ، إنه ليس عاشقًا فحسب ، بل هو كالطفل الذي لا حياة له بدون أمه ، وانظر إليه إذ يقول :-

بَكَـرَتْ لِتُحْـزِنَ عَاشِـقاً طَفْـلُ وَتَبَاعـــــدَتْ وَتَجَـــــذَّمَ الوَصْـــــلُ

أوَكُلّمـا اخْتَلَفَتْ نَـوىً وَتَفَرقـوا لِفُـــــؤادِهِ مِـــــنْ أجْلِهِـــمْ تَـبْـــلُ [٨٠]

تبدو هذه الصورة واضحة عند كل الشعراء الجاهليين المتيمين منهم ، وحتى عند المفتونين بجسد المرأة ، وهي صورة المحب المعذب بعشقه ، والذي يرى أن هذه الصورة تحدث في نفس محبوبته أثرين كبيرين : الأول هو إرضاء غرورها الأنثوي بامتلاكها لهذا الحبيب ، والثاني إشعارها بالذنب تجاه ما تبديه من صد وهجران لحبيبها ، فتمتلئ نفسها زهوًا بالأثر الأول ، ويثير فيها الثاني الشفقة والمواساة لهذا الشاعر المحب

غيبوبة الوجد ونشوة الانخطاف:

ومن ملامح هذا الحب والغزل العفيف الذي نجده عند المتيمين ، أن نجدهم يتلذذون بالعذاب ، ويستمتعون بالألم في هذا الحب ، ونجد المرأة في شعرهم ذات حضور نفسي وروحيٍّ أكثر وضوحًا فالشاعر لا يلاحق فيها دقائقها الحسية ولا ينشغل بكيانها المادي، ولكن ينشغل بها كروح يهيم بها ويطوف حولها ، وكنفس تعيد الحياة إلى جسده العليل، فينشغل عن الموجودات بعشقها و يدخل بصبابته إليها عالم الانخطاف والنشوة والغيبوبة، هذا العالم الواقف على حافة الموت والشبيه بالموت.

---

[٧٨] - الاختيارين . الأخفش الأصغر . ت : فخر الدين قباوة دار الفكر المعاصر .بيروت . ص٦٩٤

[٧٩] - ديوان زهير بن أبي سلمى ت : علي حسن فاعور. دار الكتب العلمية . بيروت ط١ ص ١٣١

[٨٠] - جمهرة أشعار العرب أبو زيد القرشي علي ت : محمد البجادي . نهضة مصر للطباعة والنشر . ص٤٣٢

فإن كانت حبيبته غائبة عنه بجسدها فهي حاضرة بروحها وعشقها الساكن في فؤاده، وهي موجودة بخيالها وطيفها في كل الأشياء حوله ، وكل مظاهر الطبيعة من حوله تستدعيها وتذكره بها ، فيهيم محدثًا الطير عنها والنسيم تمامًا كما يفعل هذا الشاعر المتيم عنترة بن شداد :-

يا حمامَ الغصونِ لو كُنْتَ مِثْلي عَاشقًا لم يَرُقْكَ غُصنٌ رَطِيبُ

فَاتْرِكِ الوجدَ والهَوى لِمُحِبٍّ قلبُهُ قَدْ أذابَهُ التعذيبُ [٨١]

وهو على هذا العذاب الذي يلاقيه في حبها ، وهذا الوجد الذي أختطفه من حياته ، وشغله عن الناس ، يحن حتى لطيفها المبهج الذي يبعث النشوة في فؤاده المتعطش لرؤيتها فيقول :-

أشاقكَ من عبلَ الخيالُ المُبّهَّجُ فَقَلْبُكَ مِنْهُ لاهجٌ يتوهَّجُ

فَقَدْتَ التي بَانَتْ فَبِتَّ مُعَذّباً وتِلكَ احْتَواهَا عَنْكَ للبينِ هودجُ [٨٢]

ومهما انشغل بأمور حياته اليومية ، فإن قلبه يظل معلق بمحبوبته ، فإذا ما ذُكِرَ أسمها أو خطرت بباله اعتراه الهيام والشوق والوجد ، وكاد من شدة النشوة بسماع اسمها أو إلمام طيفها أن يشعر وكأن الأرض تدور به ، هذا الإحساس من الانخطاف والنشوة يخبرنا به المرقش الأصغر فيقول :-

صَحَا قَلْبُهُ عَنْهَا عَلَى أنَّ ذِكْرَةً إذَا خَطَرَتْ دَارتْ بِهِ الأرضُ قَائِمَا [٨٣]

ولهذا الوجد الذي يملك على المحب ذاته أثر في جسده ، وكأن هذا الحب وهذه المواجد تشغله حتى عن الاعتناء بنفسه ، فيزهد كل شيء من حوله ، الماء والطعام والملبس ، حتى ليهزل جسده ، وتزايله علامات الشيخوخة نتيجة لذلك ، وهذا ما برَّح بشر بن أبي خازم فقال :-

جَدَدْتَ بِحُبِّها وهَزلْتَ حتَّى كَبُرتَ وقِيلَ إنَّكَ مُسْتَهامُ [٨٤]

وهو مقيم على هذا الحب الذي استغنى به عن هذا العالم ما دام حيًّا ، لن تغيره

---

[٨١] - ديوان عنترة بن شداد برواية الخطيب التبريزي . قدم له . مجيد طراد ص ٢٧ ، ولم ترد في تحقيق محمد سعيد مولوي

[٨٢] - ديوان عنترة بن شداد برواية الخطيب التبريزي . قدم له . مجيد طراد ص ٤٠ ، ولم ترد في تحقيق محمد سعيد مولوي

[٨٣] - الصناعتين . أبو هلال العسكري ت : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم . المكتبة العنصرية – بيروت ص ٧٣

[٨٤] - المفضليات ٩٧ ص٣٣٤

الأحداث ولا صروف الدهر وتقلباته ، ولن يقبل في حبها عذلًا ولا لومًا ، سيظل يلهج بحبها ما دامت أنفاسه تتردد بصدره ، فهو يتمسك بحبيبته تمسكه بالحياة . لا يتخلي عنها مهما تكبد في حبها من مشقة ، تمامًا كما يقول زهير ابن أبي سلمى :-

فَلَسْتُ بِتَـارِكٍ ذِكْـرَي سُلَيْـمَى وتَشْـبِيْبِي بِأُخْـتِ بنـي العِـدانِ

طَـوالَ الـدَّهْرِ مَـا ابْتَلّتْ لَهَـاتِي ومـا ثَبَـتَ الخـوالدُ مـن أبَـانِ

أفِيقَـا بعـضَ لومِكُمَـا وقُـولا قَعِـيدُكُمَا بِمَـا قَـدْ تَعْلَـمَانِ

فَـإنِّي لا يَغُـولُ النـائيُ ودِّي ولا مَا جَاءَ مِنْ حَدَثِ الزمانِ [٨٥]

الحب هو الحس والوجدان

تبدو ثنائية الجسد والروح ، الحس والوجدان ذات حضور واضح في عشق هذا الشاعر الجاهلي وهي أشبه بقضايا نقدية كلاسيكية قديمة أثارها النقاد القدماء كالشكل والمضمون ، واللفظ والمعنى ، ونحن نرى أن هذه الثنائية خادعة في مظهرها الخارجي وتشي بوجود تناقض بين الجانبين ، والحقيقة أنه لا فرق بين هذين الجانبين ولا تناقض بينهما ، فلا توجد روح بلا جسد ولا يوجد وجدان لا يحس ويتلذذ من خلال الحواس ، غير أن تقاليد هذا المجتمع الحربي المستعد دائما للقتال والصراع هي التي غَلَّبَتْ القيم الحسية والمادية وجعلت لها طغيانًا على غيرها فتوارت المشاعر والوجدانيات كثيرًا في حضور هذه المادية الزاعقة لكنها لم تختفِ تمامًا كما رأينا .

وربما كان لمفهوم الفروسية التي سادت هذا العصر أكبر الأثر في ذلك ، إذ أنه كان ينظر للفارس على أنه صاحب بطولة وفتوة ، وهذه النظرة له تنسحب على كل معاملاته حتى مع المرأة ، وبالتالي سطعت هذه الحسية والمادية كدلائل على هذه الفتوة ، ويؤكد على ذلك دكتور شوقي ضيف فيقول :- " وقد يصورون في تعلقهم بالمرأة ضربًا من المتاع الحسي ، على نحو ما يصور ذلك طرفة في معلقته وكذلك امرؤ القيس ، ومرد ذلك إلى ضرب شاع عندهم من الفتوة ، فهم يتمدحون بأنهم ينالون من المرأة ما يريدون ، وكانوا وثنيين ولم يكن هناك دين يردعهم " [٨٦]

وربما كانت المرأة الجاهلية هي الدافع الحقيقي وراء انتشار تلك الحسية في غزلهم ، وذلك لأنها كانت تمتدح الرجل بصفات البطولة والفتوة وتصفه بصفات حسية هي الأخرى تمامًا مثلما رثت الخنساء أخاها وكأنها لا تتمنى في زوجها غير تلك الصفات فقالت :-

---

[٨٥] - ديوان زهير بن أبي سلمي ص١٣٣

[٨٦] - العصر الجاهلي شوقي ضيف ص ٢١٤

مثل الرُّديـنيّ لـم تنفـدْ شبيبتهُ كأنّـه تحـت طـيّ البـردِ أسـوارُ
طلـقُ اليـدينِ بفعـلِ الخيـر ضـخمُ الدَّسـيعة بـالخيراتِ أمـارُ
حمَّـالُ ألويـةٍ هبّـاطُ أوديـةَ شهَّـادُ أنديـةٍ للجيشِ جـرارُ [٨٧]

فهي ترى من سمات هذا الرجل وصفاته المحمودة أن تكون قامته كالرمح في القوة والطول وأن يتمتع بشبابٍ دائم لا ينتهي وجسد ضخم يستطيع حمل اللواء وقيادة الجيش في الحروب ، وأن يكون كريمًا يحض على الخيرات .

ومن ثَمَّ كان لذلك انعكاس على وعي الرجل بأهمية الشباب والفتوة عند المرأة ، وأثرهما في إظهار فحولته الجنسية في هذا الجانب ، وإذا ما كان الأمر كذلك فإن اعتناءه بها سيكون من خلال اهتمامه بمفاتنها الجسدية وإظهاره لقدرته على التمتع بتلك المفاتن ، لذا ما أكثر ما تحسر الشاعر الجاهلي على رحيل الشباب وما أصابه من شيخوخة ، لأنه يرى أن ذلك سبب حقيقي لزهد المرأة فيه ، ولذلك نجد شاعراً كعلقمة الفحل يقول :-

فـإنْ تَسْـألوني بالنِّسَـاءِ فَـإِنَنِي بَصِـيرٌ بـأَدْواء النِّسَـاءِ طَبِـيبُ
إِذَا شَـابَ رَأسُ المرْءِ أَوْ قَل مَالُـهُ فَلَـيْسَ لَـهُ فِـي وُدِّهِـنَّ نَصِـيبُ
يُـرِدْنَ ثَـراء المَـالِ حَيْثُ عَلِمْنَـهُ وَشَـرْخُ الشـبَابِ عِنْـدَهُنَ عَجِيـبُ [٨٨]

وأحسب أن في قصة علقمة ومنافرته لامرئ القيس و ترجيح أم جندب زوجة امرئ القيس له ما يشير إلى أهمية الفحولة في نظر المرأة الجاهلية ، فقد ذكرت الرواية أن امرأ القيس طلقها وأن علقمة بن عبدة تزوجها وأن هذه الواقعة هي سبب تسميته بعلقمة الفحل ، ويذكر ابن قتيبة ذلك في نهاية روايته للمنافرة فيقول على لسان امرئ القيس :- " فقال لها : ما هو بأشعر منّى ولكنّك له عاشق! فطلّقها وخلف عليها علقمة فسمّى الفحل لذلك" [٨٩]

ويذكر البغدادي سببًا آخر منسوبًا إلى مجهول فيقول " وَقيل لَهُ عَلْقَمَة الْفَحْل من أجل رجل آخر يُقَال لَهُ عَلْقَمَة الْخصي . وَأما عَلْقَمَة الْخصي فَهُوَ عَلْقَمَة بن سهل أحد بني ربيعَة بن مَالك بن زيد مَنَاة ابْن تَمِيم ذكر أَبُو يقظان أَنه كَانَ يكنى أَبَا الوضاح ، وكان سَبَب خصائه أَنه أسر بِالْيمن فهرب فظفر بِهِ فهرب ثَانِيَة فَأخذ وَخصي" [٩٠]

---

٨٧ - جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب أحمد إبراهيم الهاشمي مؤسسة المعارف . بيروت ج٢ ص٣٩١

٨٨ - لباب الآداب للثعالبي ت: أحمد حسن لبج دار الكتب العلمية بيروت ص١١٦

٨٩ - الشعر والشعراء ابن قتيبة ج١ ص٢١٤

٩٠ - خزانة الأدب . عبد القادر البغدادي ج٣ ص٢٨٣

وأيًّ ما كان صدق إحدى الروايتين فالواضح والمؤكد منهما أن سبب التسمية كان لأسبابٍ جنسية واضحة ، فالفحل لغةً هو الذكر القوي من كل حيوان ، والفحولة قبل أن تكون مصطلحًا نقديًّا كما استخدمه ابن سلام الجمحي ، هي كلمة ذات دلالة جنسية واضحة في هذا المجتمع ، ومن ذلك يتضح أن الحب الشهواني الذي يظهر قوة الرجل وفتوته وقدرته على التمتع بمفاتن المرأة وإشباعها كان رغبة مشتركة بين الاثنين ، وكان تعبيرًا عن فروسية أخرى ليس ميدانها القتال والحرب وإنما كان ميدانها العشق والحب .

هكذا بدا حب الشاعر الجاهلي في مظاهره الخارجية تعبيرًا عن الحسية والجسدية في أغلب صوره ، لكنها حسية تقدر الجمال وتفتتن به ، وهي في ذات اللحظة لا تنكر على الوجدان والمشاعر نشوتها لكنها لا تفصح عنها أو تصفها كثيرًا ، لما كان فيها من مظاهر الضعف والتهالك التي لا تتفق مع هذا المجتمع الحربي بما كان يعليه من قيم البطولة والقوة ، وربما كان هذا سببًا وراء امتزاج غزل المتيمين كعنترة بالفخر والفروسية ، ليظهر أن رقته وانكساره في الحب ليس عن ضعفٍ أو وهن .

والحقيقة أن ملامح هذه العذرية _ إن جاز أن نسميها بذلك _ كانت نوعًا من تراجع الشاعر الجاهلي للبحث في داخل ذاته عن أثر هذه الحبيبة في نفسه وروحه وهو يحاول ملء هذا الخواء الروحي والفراغ النفسي الذي ولدته تلك البيئة في نفسه وروحه ، فلم يجد أفضل من المرأة وحبها لتشبع تلك الاحتياجات السامية التي عبرت عن نقاء ذاته وطهر مشاعره ، بينما كان الحب الجسدي بمظاهره المادية الصارخة اتجاه إلى الخارج وانغماس في الحسية التي رأى فيها منهلًا يعب منه المتعة والنشوة معًا ، فأصبحت العذرية والجسدية هما طرفا الحب عند الشاعر الجاهلي ، وهما معًا وجها حقيقية واحدة ، ففي الجسدية : شأن العذرية ، بُعْدٌ روحي ونارٌ سحرية تدفئ وتضيء .

الحب جدلية اللذة والألم:

جسد الحب بالنسبة للشاعر الجاهلي جدلية فارقة في حياته ، فهو الذي لا يقر في وطن ، ولا تهدأ به النوى ، يسلمه قلبه والحب إلى المرأة ، فيرى فيها سكنًا ووطنًا له ولمتعته ومشاعره ، ويرى فيها عوضًا عن قهر المكان وسطوة الزمن ، فإذا به يصبح أكثر خضوعًا في حبها لتقلباتهما ، وإذا بذلك الحب وقد أوقعه أسيرًا في قبضة المكان والزمان ، وهو الذي اصطنع الفروسية وانتهج الرحلة ليفلت من إسارهما من قبل ، ها هما أوقعاه عن طريق قلبه وحبه فيصبح المكان بنأيه للحبيبة خصمًا والزمن بتقلباته وأحداثه المفجعة لمشاعره عدوًا ، وهو ممزق بين رغبته في لذة الحب ولوعة الفراق والهجر ، فيظل حلمه بالوصل قائمًا وألمه ولوعته بالهجر ملازمة له ، هكذا يصبح الحب جدلًا بين اللذة والألم

وهذا ما يطلعنا عليه عنترة بن شداد حين يرى أن المكان أصبح بلا روح إذ يقول :-

Doi: 10.12816/mdad.2019.48361

يــا دارَ عبلــةَ أيــنَ خيَّــمَ أهلُــها   لمَّــا ســرتْ بهــمُ المُطــيُّ وبــانُوا
ناحـتْ خمـيلاتُ الأراكِ وقـد بكـى   مــن وحشــةٍ نــزلتْ عليــهِ البــانُ
يــا دارُ أرواحُ المنــازلِ أهلُهــا   فــإذا نَــأوا تَبْكِــيهُمُ الأبْــدانُ [٩١]

هذا الحديث الذي يبثه الشاعر لكل مظاهر الطبيعة من حوله معبرًا فيه عن عظم الفاجعة التي يعانيها من رحيل حبيبته ونأيها عنه ، وما تثيره الديار والأطلال في نفسه من ذكريات تزيده ألما وحسرة ، هذا الحديث هو صوت تلك الجدلية القائمة على اللذة والعذاب ، وهو انعكاس لوطأة المكان بقسوته ولسطوة الزمن بقهره ، ولا مفر أمام الشاعر المحب من ترديده داخل نفسه الظمآنة للنشوة والمتعة ، فهذا حاتم الطائي يحاول ويتوهم أنه قادر على قتل هذا الحديث في داخله إذ يقول :-

سأطوي حديثَ القلبِ حتَّى أُمِيْتُهُ   وأسْـتُرُهُ لـو أسْـتَطِيعُ عَـنِ القَلْـبِ [٩٢]

وعبثًا يحاول وبُعدًا ما يريد ، فهو يعلم أنه لا يستطيع طي هذا الحديث ، فاستخدامه أداة الشرط (لو) يعني الاستحالة والامتناع ، ولكنه يريد أن يطلعنا على هذا التمزق النفسي الذي يعانيه بين لذة العشق ولوعة الفراق والهجر ،

والشاعر الجاهلي لفرط هذه المكابدة التي أدمنها أصبح يرى فيها وفي عذابها متعة ولذة فمجرد حديثه عن محبوبته هو باعث من بواعث الفرح والنشوة ، حتى ولو كان حديثًا عما يعانيه من الهجر والوجد والصبابة ، إلا أنه يجد فيه سلواه ومتعته فالحب أصبح قيمة ومتعة في ذاته ، هكذا يفعل عنترة فيقول :-

يـا طــائرَ البـانِ قَدْ هَيَّجـتَ أشْجـانِي   وزدتنــي طَــرَباً يــا طــائرَ البــانِ
إنْ كُنْـتَ تَنْــدُبُ إلفــاً قَدْ فُجِعْـتَ بـهِ   فَقَـدْ شَجَــاكَ الــذي بــالبينِ أشجــاني
زِدْنِي مِنَ النَّوحِ وَاسْعِدنِي على حُزْنِي   حتَّــى تَـرَى عَجَـباً مِـنْ فَـيْضِ أجفَـانِي
وَقِـفْ لِتَنْـظَرَ مَـا بِـي لا تَكُـنْ عَجِـلاً   واحْـذَرْ لِنَفْسِكَ مِنْ أنفاسِ نِيـرَانِي [٩٣]

---

[٩١] - ديوان عنترة بن شداد برواية الخطيب التبريزي . قدم له . مجيد طراد ص ١٩٥ و١٩٦، ولم ترد في تحقيق محمد سعيد مولوي

[٩٢] - ديوان حاتم الطائي . ت . د: حنا نصر الحتي دار الكتاب العربي . بيروت ط ١. ص ٩٩

[٩٣] - ديوان عنترة بن شداد برواية الخطيب التبريزي . قدم له . مجيد طراد ص ١٩٦، ولم ترد في تحقيق محمد سعيد مولوي

فإذا ما رأى وجه حبيبته أشرقت الدنيا في عينية وظن أنه رأى شمسًا أو سنا نارِ برغم ما في قلبه من ألم يعتصره لهذا الرحيل ، فوجهها هو النور والنار وهو الضياء والبهجة اللذان سيفقدهما بالفراق كما يقول النابغة :-

رَأَيْتُ نُعْماً وَأَصْحابي على عَجَلٍ والعَيْسُ لِلْبَيْنِ قَدْ شُدَّتْ بِأَكْوَارِ

فَرِيعَ قَلْبِي وكَانَتْ نَظْرَةٌ عَرَضَتْ حَيْناً وتَوْفِيقَ أَقْدارٍ لأَقْدَارِ
أَقُولُ والنَّجْمُ قَدْ مَالَتْ أَوَاخِرُهُ إلى المَغِيبِ: تَثَبَّتْ نَظْرَةً حَارِ
أَلَمَحةٌ مِنْ سَنَا بَرْقٍ رَأَى بَصَري أَمْ وَجْهُ نُعْمٍ بَدَا لي أَمْ سَنَا نَارِ
بَلْ وَجْهُ نُعْمٍ بَدَا واللّيلُ مُعْتَكِرٌ فَلاَحَ مِنْ بَيْنِ أَثْوَابٍ وَأَسْتَارِ [٩٤]

هكذا تختلط اللذة بالألم والغبطة بالحسرة والرغبة في امتلاك الحبيب بالقهر أمام فقده وضياعه ، لكن سعي الشاعر الحثيث وتمسكه بالحب وبحلم اللقاء ، يظل اللذة التي تقهر كل هذه الآلام والأوجاع وتقضي عليها ، فالحب أصبح قيمة تشع في نفسه النشوة والمتعة التي تقهر معاناته في هذه الحياة الضحلة الرخوة ، فإذا كان هذا الشاعر الجاهلي قد ارتفع بفروسيته على ضحالة الحياة وخطر الموت من حوله وحقق بها ذاته فانتصر على الموت والحياة معًا ، فإنه اتخذ من الحب بمتعته الحسية ونشوته الروحية سبيله لإشباع ذاته من اللذة والنشوة وتوكيدها في هجير هذه البيئة القاسية .

[٩٤] - ديوان النابغة ص١٩ و ٢٠ و٢١

Doi: 10.12816/mdad.2019.48361